جوائز ناجي نعمان الأدبيَّة الهادفة

prix littéraires ciblés

premios literarios apuntados

naji naaman *'s*

targeted literary prizes

جائزة أنجليک باشا لتَمتين الرَّوابط الأُسَريَّة

prix angélique bacha

pour la consolidation des liens familiaux

premio angélique bacha

para la consolidación de los lazos familiares

angélique bacha's prize

for the consolidation of family ties

2011

يوسف ناصر

قلائدُ العَقيق

مؤسَّسة ناجي نعمان للثقافة بالمجَّان

يوسف نعمان ناصر

شاعرٌ وأديبٌ فلسطينيّ، محاضِرٌ للُّغة العربيَّة في جامعة القدس. يُقيمُ في مسقط رأسه كفرسميع من الجليل الأعلى في فلسطين. درَّس اللُّغةَ العربيَّةَ في مدرسة ترشيحا الثانويَّة (قضاء عكَّا) أربعةَ عقود. عضوُ اللَّجنة التَّنفيذيَّة لرابطة الأدباء والكتَّاب الفلسطينيِّين المُنتَخَبَة في النَّاصرة عامَ ١٩٨٧. قلَّدَه بطريرك المدينة المقدَّسة وسامَ القبر المقدَّس تقديرًا لخدماته وتضحياته. له أعمالٌ أدبيَّةٌ عدَّة، منها: ديوان "ومضات وأعاصير"، ورواية "ضريح الحسناء"، و"لعاب الأفاعي"، و"المعلِّم" في الإعراب، و"صوت صارخ في البرِّيَّة"، و"ورق ورحيق"، إلى "قلائد العقيق". حازَ "شهادة تقدير" في الأدب من المنظَّمة العربيَّة للتَّنمية التَّابعة لجامعة الدُّول العربيَّة لمشاركته في مؤتمر الإبداع الَّذي عقدَته في القاهرة عامَ ٢٠٠٠؛ نالَ "جائزةَ ناجي نعمان الأدبيَّة الاستِثنائيَّة" في لبنان لكتابه "ورق ورحيق" (٢٠١٠)، إلى إحدى "جوائز ناجي نعمان الأدبيَّة الهادِفَة" (جائزة أنجليك باشا لتَمتِين الرَّوابط الأُسَرِيَّة، ٢٠١١) لكتابه "قلائد العقيق".

Yousef Naaman Nasser

Poète et écrivain palestinien, professeur à l'Université Al-Quds. Avec plusieurs œuvres publiées à son actif, il est lauréat du prix littéraire exceptionnel Naji Naaman (2010) et du Prix Angélique Bacha pour la consolidation des liens familiaux (2011) dans le cadre des Prix Littéraires Ciblés Naji Naaman.

Palestinian poet and writer, professor at Al-Quds University. With several published works, he is laureate of Naji Naaman's Outstanding Literary Prize (2010), as well as Angélique Bacha's Prize for the consolidation of family ties (2011) within Naji Naaman's Targeted Literary Prizes.

أنْ نقرأَ يوسف ناصر متعةٌ وإفادة، أيُّهما! أنْ نستخلِصَ من كتاباته شخصيَّتَه وتَميُّزَه الإنسانيَّ تَشويقٌ وقِدوَة، وما أحلاهما! إنَّه قَلَمُ الألَم والأمل، وريشةُ الدَّم والمَدى، الأُسرَةُ لديه، كما لدَيّ، آسِرَة، والأرضُ هي الغالِيَة.

هَنيئًا لك، أيُّها الجَليليّ، "قلائدكَ العَقيقيَّة" الَّتي ستَغدو، وبالمَجَّان، قلائدَ الكثيرين؛ ولْيَعِشْ شِعارُنا القائِل: "الثَّقافةُ لا تُشرَى ولا تُباع".

ناجي نعمان

لبنانُ لن ينطفئ..!

إستِنكارًا لحرب ٢٠٠٦.

لا، لبنانُ لن ينطفئ..! ولو جرَّ الظَّلام كلَّ بحاره وراءه، وحملها بين ذراعيه من أقاصي الأرض وغمر بها لبنان.. يبقى لبنان تحت الماء شمسًا وضَّاءة تبعثُ من تحت الطّوفان أمواجَ النُّور للعالم..! وعلى الرَّغم من أنفك يا موت، يبقى لبنان يردِّد: لا، لا، لبنانُ لن ينطفئ..!

ولو نادى الموت كلَّ جنده وعساكره من أنحاء الدُّنيا، فجاءت من الأرض والسَّماء تضربُ بالجبال عظمةَ لبنان، وخلودَ الأرز، وتُلقي بالجحيم على مجد صنِّين، فإنَّ لبنان لن يتهدَّم..! ولو أنَّ صواعق الأرض كلَّها جاءت تحمل على ظهورها كوارثَ العالم، وألقت بها فوق لبنان، فإنَّ لبنان ينهض من تحت الكوارث زهرةً شذيَّةً تحملُ الصَّواعقُ من شذاه عطرًا فوَّاحًا للكون الذي أرسلها! ليبقى لبنان سرمدًا، حديقةَ الدُّنيا، وزهرةَ الأمم التي لا تذبل..!

لا، لبنان لن ينطفئ..! ولو أنَّ فراعنةَ الدُّنيا، قديمَهم وجديدَهم، استلّوا سيوفًا أطول من مسافات الزَّمن، وجلدوا بها عنق صنِّين، تبقى هامَةُ صنِّين شامخةً إلى السَّماء تتدلَّى منها عناقيدُ النُّجوم، وتحومُ حولها أسرابُ الكواكب، ويبقى لبنان ذلك الجبل المِشماخ الَّذي لا يركع..!

لبنان، لو ساقوه إلى ألف جلجلة تحت الضَّرب واللَّكم والرَّفس، ودقُّوا المساميرَ بيدَيه ورجلَيه، ورفعوه على ألف صليب، يخرج لبنان من قبره يصنع المعجزات للدُّنيا، ويضع الموتَ في نعش، ويُحيي الأموات من الحكَّام.. ويشفي الخُرسَ في الأمَّةَ الخرساء، والعُميَ في الشُّعوبَ العمياء، لأنَّ لبنان توأم الأبد.. وعلى الرَّغم من الصَّلب أزليٌّ هو، يخرجُ من القبر حيًّا ولا يموت..!

ولو جاء إلى لبنانَ كلُّ نيرونٍ في الأرض، وأطلقَ نسورَ الموت أسرابًا فوقه لا تبرح سماءَه، وبعث إليه بالعقارب المدرَّعة، والجنادب المصفَّحة تطحنُ بقنابلها عظامَه، فإنَّ لبنانَ يصعد من تحت الرّحى قلعةً عصيَّةً على الزَّلازل والبراكين، وما كان للبنانَ يومًا أن يندثر..!

.. لا، لبنانُ لن ينطفئ! ولو أنَّ غاباتِ الدُّنيا كلَّها أرسلت وحوشها لتحرثَ بأنيابها قامَةَ لبنان، وتمزِّقَ أطفالَه وشيوخَه ونساءَه، وتسوقَ أمامَها آلافَ الفقراء الأبرياء النَّازحين إلى الموت، فإنَّ لبنان يبقى صخرةً تكسِّرُ بيدَيها نيوبَ الوحوش البشريَّة، وتقلع بساعدها نواجذَ الموت السَّامَّة، لأنَّ لبنانَ يبقى قامَةً من الصَّخر تعلو على كلِّ علوٍّ، ولا تنحني!

.. لا، لبنانُ لن ينطفئ! أنَّى نبَشتَ في ترابه، عثرتَ هناك على قبرِ جبَّار من جبابرة أبنائه تحت التُّراب..! وما استقيتَ من ينبوعٍ على أرضه إلاَّ وجدتَه يجري من قلمٍ دفينٍ من أقلامهم تحت الثَّرى..! إنْ دفنوا **صورَ** تطلع صورُ الجديدةُ من رحم الرّكام..! وإنْ دمَّروا **صيدا** تخرج صيدا الجميلةُ من بطن الخراب! وإنْ أنزلوا **بيروتَ** إلى أعمق قبرٍ في الدُّنيا، تصعد بيروتُ العظمى من أعمق أعماق الجحيم..! إنْ هدموا مدنكَ وقراكَ يا لبنان، فإنَّ تحت ثراك مدنًا عامرةً كثيرة، وقرًى حيَّةً عديدةً يحيا فيها الخالدون من بَنيك..! أولئك ممَّن يَعيا الموتُ الزَّاحفُ إليك أن يهدمَ مدنَهم ويدمِّرَ قراهم.. ولو نزلت القنابل إليهم ألف ميل تحت التُّراب!

أيَّتها الحرب! ما أقسى قلبك! وكم أنت غبيٌّ أيُّها الشَّيطان الَّذي أرسلَها! لم تدرِ أنّك بقَدْر ما تهدمُ للنَّاس منازلَهم، تبني عزائمَهم وتؤجِّجُ ضغينتهم! إنَّ مَثَلَ مَن يرغبُ في أن يُسكِتَ النَّاسَ بالقتل والتَّشريد، مَثَل مَن يطلبُ أن يُخمدَ النَّارَ، فيذهب إليها ويُغطِّيها بالهشيم اليابس؛ ومثَل من يأملُ من عواصف الشِّتاء أن تحطِّمَ غصونَ الشَّجر الباسقة، فيزيدها الشِّتاءُ بأمطاره السَّخيَّة علوًّا وزهوًا بين رفرف الشَّجر في الرَّبيع الزَّاهر!

لم يَدرِ مَن أرسلكِ أنَّ الحربَ حين تضعُ يدها على محراثها، ترمي وراءها بذورَ السّخط والثَّأر..! هناك، ويا هولَ ما ترى! تأكلُ النَّارُ نفسَها وتنطفئ ..! لأنَّها طول التسيار أجهدها، ولا تستطيعُ أن تمشيَ حافيةً كلَّ الطَّريق الطَّويلة، لتلحقَ بسنابل الحقد الكثيرة الَّتي تركَتها وراءها في الحقول الفسيحة..!

لبنان، يا نورَ الأمم، وبسمةَ الله على الأرض! إنِّي أرمي اليوم، وفي كلِّ ساعة، قلبي عبرَ الحدود إليك، وأرشُّك كلَّ لحظة بأدمعي من وراء الجبال.. وأُطلق من صدري كلَّ صباح رياحًا تحمل الصَّيحة بعد الصَّيحة على الَّذين يغسلون بالنَّار وجهَك الجميل.. ويفرشون أرضَك جمرًا تحت الحفاة من أبنائك المساكين! إنِّي، يا لبنان، أضمُّك من بعيد إلى صدري، وأحملك خلف الجبال القريبة في جفني، وأتمنَّى لو يكون فؤادي خبزًا لأطفالك، وملجأً للمشرَّدين الضَّائعين من أبنائك، النَّائمين مع الحزن والدُّموع حيثما كانوا فوق ترابك الحبيب!

لبنان، تجمَّلْ، اصبِر ولا تجزَعْ! لقد صنع الله لك مجدًا عظيمًا بين الشُّعوب والأمم، وجعلك سوارًا في معصم الزَّمان؛ ومتى كان المجد يا لبنان في هذا العالم لغير المضطهَدين والمعذَّبين بعظمتهم في الأرض؟! ولَئِن فاضت دموعك بحارًا حمراء غمرت حدائقك الشَّذيَّة، ولَئِن انهمرَت دماؤك أمطارًا سخينةً روَّت أرضك الزَّكيَّة، ولَئِن طار صراخك إلى كلِّ أُذن لا تسمع في هذا العالم، وقد حجب إلى حينٍ شدو أطيارك الفضِّيَّة، ولَئِن تكنَّفَك الموت، وألقى من الظُّلمة وَشاحًا على بسماتك النَّديَّة، فلَسَوف تبقى يا لبنان شعلة المحبَّة وعرش النُّور في هذه الدُّنيا، ومنزلَ المجد ومربضَ الخلود في هذا العالم، ومعك تردِّدُ الأرض والسَّماء بأعلى الصَّوت أبدَ الدَّهر: **لا، لبنانُ لن ينطفئ! لبنانُ لن ينطفئ!**

من بالشَّراب إذا عطشَ القلم!

كلاَّ، بل هذا مطرٌ هتَّانٌ يندلقُ من جفنَيكَ، لا دمعة سخيَّة.! وهذه رياحٌ حمراءُ تهبُّ من فمكَ لا أنَّةٌ حزينة؛ ما احمرَّ وجهُكَ، بل إنَّ برقًا خاطفًا أومضَ في خدَّيكَ من لؤم الزَّمن؛ وما أظلم محيَّاكَ واسودَّت ابتسامتُك، بل إنَّ دخانًا أسودَ صعد من أعماقك، ليشهدَ على عاطفة زخَّارة تلتطمُ فوق صخور قلبكَ، وتنثرُ لآلئكَ السَّنيَّة في الجفن الكئيب! فما أعظمَكِ أيَّتها العاطفة الزَّخَّارة ساعة تُحَشرِجين في جنبات صدري، وما أنبلَكِ أيَّتها الدَّمعة الحَرَّى حين تحملين معك ذوبَ القلب من أعماق بئري، كي تسقيَ منِّي غصونًا ترفّ، وأفنانًا تتأوَّد على ضفاف المحاجر..!

إيهِ أيَّتها العاطفة، نعمةٌ عظيمةٌ من نِعَم السَّماء، وحَسَنةٌ دائمةٌ من حسناتها على الأرض، ولؤلؤةٌ نفيسةٌ وضعَها الله بيده في قلوب الملائكة الَّذين لبسوا أجسادَ بشر، ونزلوا ليحيوا بينهم في بلاده الواسعة..! فافتَحي فمَك أيَّتها الأرض! وقولي بأعلى الصَّوت ولا تتهيَّبي: ليس أشدّ فَقرًا وشقاءً بين أبنائي مِن أولئك الَّذين لم ينفخِ الله في قلوبهم نسمةً قدسيَّةً من عاطفة، وجذوةً من محبَّة، فعَدموا هذه النِّعمة، فاحتجبت بذلك عن أعينهم رؤيةُ الجمال السَّرمديِّ في هذا العالم!

إنَّ العاطفة في الإنسان كالنّسغ في غصون الشَّجر، إذا جُرح لحاؤها تقَطَّرَ منها وسَحَّ على جَنباتها، كالدَّمعة تنهلُّ من المآقي إذا بعثَها الألم..! وإنّ مَن ليست لهم عاطفة بين بَني البشر – وما أكثرَ أولئك – أولئك غصونٌ يابسةٌ لا تورق يومًا، ولا تأتي بالثَّمر للنَّاس في هذا العالم. كذلك الأُسرَة الَّتي لا تجمع العاطفة بين أبنائها، ولا يصل الحان بين قلوبهم هي حجارةُ بنيانٍ مهدَّمٍ كان ركَّعه الخراب..!

إنَّها العاطفة، ابنةُ المحبَّة، وأحبُّ أولادها إلى قلبها! لا تكفُّ يومًا عن رضاعتها طفلةً بريئة، وشابَّةً عتَّقَها الحبّ، وعجوزًا تدبُّ على العصا... ولولاها لما هتفت ورقاء على فننٍ رطيبٍ تُناجي إلفَها، ولما جاشَ دمعُكَ أيُّها الباكي لكلِّ لحنٍ شَجِيّ، وما كسر قلبَكَ نداءُ ثكلى على القبور.. وحدَها العاطفةُ، بين كلِّ بنات الملائكة، الَّتي تأمرُ أيدي الرّحماء فتمتدُّ لتُسعفَ المساكين، وتجمع الأخوة على الحبِّ الدَّائم فوق الطَّمع، وبأذرعها تضمُّ الأخَ إلى أخته، وبساعدَيها تؤلفُ بين الرَّجل وزوجه؛ هي وحدَها الَّتي، إنْ رأت صاحبَها يحملُ سيفًا، كسرَته بيدها، أو يُشعلُ نارًا خبيثة، أطفأتْها بفمها. ما أعظمَها مُبصِرَةً يقودُها العقلُ والحكمة! وما أقبحَها عمياءَ مجنونةً، فقدَت رُشدَها، وتُلقي بأصحابها في أعماق التّهلكة!

يا أخوة الكلمة في هذا العالم! متى كانت كؤوسُ الأدب لذيذةً وحلوةَ المذاق، إذا لم يملأها القلمُ من عصارة العاطفة، وقطر الرُّوح؟! ربَّاه ماذا جنيتُ؟ كم مشيتُ زمنًا في كتب، وقطعتُ مسافاتٍ شاسعةً بين سطور، حتَّى أضواني السَّيرُ ليلَ نهارَ، ويا تَعَسي إذ وجدتُ نفسي بعد طول السَّفر ماشِيًا وحدي في صحارَى قاحلة، لم أعثرْ فيها على غديرٍ واحدٍ أُطفِّي منه الظَّمأ، أو شجرةٍ ظليلةٍ أتفيَّأُ تحتها من وهج الحرِّ الحارق..!

لولا العاطفة لقَتَلَ الخريفُ هذا الكون، واحترقتِ الشِّفاه، ويبسَتِ القُبَلُ لانقطاع المطر في صدور العشَّاق، ولأقاموا للحبِّ مزارًا يؤمُّه النَّاسُ كلَّ صباح، وجعلوا عنده نُصُبًا وتذكارًا لهذه الشّعلة الإلهيَّة الَّتي تنطفىء الحياةُ بانطفائها في هذا العالم! ولو أنَّها لا تسكن قلوبَ الأمَّهات والأخوات والآباء والأبناء، لاستحالَت منازلُ النَّاس صحارى حارقة، ولكانت حجارتها جذاذاتٍ من سعيرٍ ولَهَب!

لو كانتِ العاطفةُ ملكةَ هذا العالم، لأمرَت جُندَها أن يقفوا على الأبواب، ويمنعوا كلَّ مجرمٍ أن يدخل روضةَ الله على الأرض، ويطردوا كلَّ ذرِّيَّةٍ لهيرودوسَ ما تزال تذبحُ الأطفالَ جداءً في كلِّ مَوضعٍ من هذه المَسكونة! ويا سوأةَ العالم، إنَّ من النَّاس قومًا قساة، ليسوا بناسٍ ولا بشر، أولئك يومَ حبلَت بهم بطونُ أمَّهاتهم، حبلَت بحجارة لم ترمِ كمثلها أحشاءُ البراكين عند المخاض، ممَّن أحكمَ اللُّؤمُ إغلاقَ قلوبهم بالأقفال، حتَّى لا يدخلَ إليهم طارقٌ مسكينٌ في اللَّيل المُظلِم!

اسمعوا ولا تتعجَّبوا يا أخوتي السَّاكنين معي في قصورها! لقد استفقتُ أمسِ من نومي، واللَّيلُ داجٍ، على جلبةٍ، وصراخٍ خارجَ المنزل، فما راعَني إلاَّ ساعة رأيتُ أكثر أرواح النَّاس ونفوسهم قد وجدت لها فرصة، وقد خرجت من أجسادهم، وانطلقت من صدورهم على رؤوس أصابعها، كَيْلا تزعجَ النَّائمين، وهي تقول بأسًى: "أيُّها النَّاسُ، حيثما كنتم، أنا لا أشتهي طعامًا شهيًّا فوق المَوائد، بل أشتهي حنانًا وحبًّا! ولا أطلب شرابًا عذبًا، بل أطلبُ عطفًا وحُنُوًّا! ولا أبتغي ثيابًا مُفوَّفة، بل أبتغي أنسًا ولطفًا!"؛ فقلتُ للَّيل الَّذي استفاق مثلي على الصَّوت الحزين: يا شقوةَ الأرواح في هذا العالم ، تلك الَّتي تعيشُ تحت صدور النَّاس في السِّجن الدَّائم، ولم تحظَ يومًا بلمسةٍ من عاطفة، ولم تحسَّ ساعةً واحدةً بأنامل حنان، تلامسُ القلب الحزين عند صاعقات الأسى وهبَّات الألم!

أيَّتها الدَّمعة، يا رسولاً للعاطفة الوهَّاجة، يطلُّ على النَّاس من فوق مآقيهم، ليدلَّ إلى أنَّ تحتَه كنزًا نفيسًا من الحنان لا يملكُه إلاَّ الرُّحماء في هذا العالم! أنتِ الحُنُوُّ الَّذي يُطلقُ رذاذَه إلى عيون الرُّحماء، وأنتِ القلبُ الرَّقيق الَّذي يدفعُ بزَبَده إلى وجوه الحزانى، وأنتِ الرُّوحُ الَّتي ترمي بفتاتها من أعماق اللّجَّة إلى النَّاس الواقفين على الشَّواطىء؛ أيَّتها الدَّمعـــة! لقد صحبتُكِ زمنًا كنـــتِ تتردَّدين على عينيَّ من الآبـــار

الطَّافحة في أعماقي، وأنا أسكب عليك بسمتي، كلَّما أظلمَ الزَّمن وعصفَت بي المِحَن! ما كان أوفاكِ عندي حين عزَّ الأوفياءُ في هذا العالم، إذ رضيتِ لعلوِّ شرفكِ ونبلكِ، أن تفارقي لأجلي أهلكِ ووطنكِ، وتصعدي إليَّ لتُفَرِّجي كربي وهمِّي، وتضحِّي بروحك عندي فوق الوجنات النَّديَّة!

أيَّتها العاطفة الزَّخَّارة! من لي بالشَّراب دونَكِ إذا عطشَ القلم! تعالي أسعفيني وترفَّقي بي! وادهني دائمًا بشَعْرك كلماتي من طيبك الفوَّاح! واسرعي إليَّ إذا صرخ القلمُ وناداني الحرفُ من شدَّة العطش! ويا أيَّتها الدُّنيا، لن أُجيزَ لكِ أن تقتلي بلبلاً فيَّ يُغَرِّدُ للحياة من فمي، ولن أدعَكِ أن تنزعي زهرةً شذيَّةً أحملُها دائمًا للنَّاس في يدي، ولن أدعَكِ تُمسكين بلجام العزم وتنزلين الفارسَ عن صهوة الجواد ما دام أحلى الشَّراب في فمه يكونُ كأسًا ممزوجةً بالبسمات والدُّموع في هذا العالم!

هنا قتلني أبي!

سلامٌ عليك، أبي، وعلى كلِّ الآباء الأبرار، والأجداد الأطهار، ممَّن ذهبوا إلى لقاء ربِّهم في الملإ الأعلى..! ويا أيَّتها السَّماء، أستحلفك أن تُلقي منِّي على قبورهم كلَّ حينٍ مطرَ العطر، ونميرَ الكوثر سيَّالاً مع ذوب الذَّهب..! ويا أيَّتها الأنسام التي تحلق كلّ فجر فوق سفوح الجليل وقممه، احمِلي عنِّي إليهم على أجنحتك نفحاتِ الرّبا، وأنفاسَ الخمائل، كلَّما صدحَ عندليب، وغرَّد بلبل. أولئك جذورُنا الممتدَّةُ عميقًا في الماضي، ومدارسُنا الأولى الَّتي أقفلَ الموتُ أبوابَها، وكنوزُنا النَّفيسةُ المحفوظةُ في جرار القبور من تراب هذا الوطن الحبيب!

افخروا أنّكم أولادُ الأرض المقدَّسة، في رياضها نشأتُم، وعند ينابيعها جلستُم، وتحت أشجارها تفيَّأتُم، وفي حقولها طُفتُم، وعلى بيادرها سهرتُم، علَّمتكُم السَّخاءَ بغلالها الكثيرة، وصفَّت نفوسَكم من كلِّ لؤمٍ بأصباحها البهيّة، وطهَّرت أرواحَكم من كلِّ خبثٍ ببراءتها النقيّة، ونمَّتِ الألفةَ في قلوبكم بعندليبها الصدّاح ، وملأت صدوركم بالمحبَّة من جمالها الفتـــّان، وغرسَت فيكم النّخوة والشَّهامة من عطر خمائلها الشَّذيّ، فكنتم اللُّطفاء الأنقياء، والفقراء الأغنياء بما لديكم من براءة وطهارة دائمة!

وأنتَ، يا أبي! أنحني كلَّ صباحٍ أمام صورتك عرفانًا بجميلك، وإجلالاً لعطائك. آتي كلَّ يومٍ إليك، ويدي تمسكُ بيد الذِّكرى سائرًا إلى مدرستك الَّتي فيها تعلَّمتُ، وتحت سقفها عشتُ، ومن ينابيعها نهلتُ، ومن بين ذراعيها خرجتُ، ومعي كلُّ ذلك الزَّاد النَّقيِّ الَّذي أكلتُ، ولا يدَعُني أجوعُ وأعطشُ مع الكثيرين من الأبناء الَّذين ماتوا جوعًا وعطشًا في هذا العالم!

لا تدري كم امتناني، وكم أشكرُ لك، يا أبي، أنَّك هنا، وفي هذا المَوضع، كنتَ قتلتَنِي..! تعالَ انظُرْ آثارَ دمي على الحجارة، وبقـــايا من

قميصي معلَّقة على الشَّوك..! وقد حدث ذلك، يومَ خرجتُ عند الصَّباح، من بين يدَيك، غلامًا بريئًا أسيحُ في هذا العالم... وحين عدتُ عند المساء إليك، وقد حمَّلني العالمُ عقلاً ملأ به رأسي، وقلبًا غرسَه في صدري، ذاك يؤمنُ بما يؤمنُ به العالم في أفكاره، وعاداته، وتقاليده البالية، وهذا يشعرُ بما يشعرُ به العالم في عواطفه، ونزعاته، وأهوائه الفاسدة، وقد جعلَني خزَّانًا يُلقي فيه كلَّ ما يشاء، كالملايين من أبناء البشر. لقد فرحتُ يومئذ وسُررتُ كثيرًا بما نلت، وحسبت جهلاً أنَّ ما أعطانيه العالم كنزٌ نفيسٌ من حقٍّ وصواب، وبِرٍّ وسلام، وفكرٍ وإيمان! وللوقت، عند عودتي إليك ساعة غروب الطُّفولة، أفزعَك منِّي ما رأيت، وروَّعكَ الَّذي شاهدت، فحملتَ المدية على عجل، وأخذتني عاجلاً وخرجتَ بي إلى هذا المَوضع، ثمّ سفكت دمي، وبلَّلت به ثيابي، على مرأى من طفولتي! ثمَّ حملتَ بيدَيك المَيْتَ فيَّ، ووضعتَه في النَّعش ودفنتَه في أعمق أعماق التُّراب! وأحمدُ الله على أنَّني منذ ذلك الموت، وبعد أن تمَّت جِنازتي، رجعتُ حيًّا صحيحًا معافًى، أحملُ في صدري القلبَ الكبيرَ الَّذي أعطيتَنِيه، وسرتُ في درب الحياة حسبما أردتَ لها أن تكونَ من القِيَم والفضائل!

يا أبي! ما أتيتُ هنا كي أفاخرَ بك من دون آباء النَّاس، أو لأضعكَ في مرتبةٍ فوقهم، إنَّ في ذلك عيبًا عليّ، وعارًا على كلِّ الَّذين يفعلون ذلك، ليستعيضوا عن نقصهم بكمال غيرهم، وانحطاطِهم بعلوِّ مَن سبقوهم من آبائهم، وأجدادهم، وعائلاتهم، وعشائرهم، وإنْ جاز ذلك عندي لا لشيء إلاّ للتَّنبيه إلى الفضائل واستنباط الدُّروس والعِبَر، ولم يكن راويها ينسبها زورًا أو يختلقَها اختلاقًا بالأكاذيب والدجل..! فالبلادُ واحدة، والسُّلطةُ واحدة، والشَّرقُ واحد، والحياة بكلِّ ما حملَته للنَّاس من أحـــداثٍ وظروفٍ واحـــدة، وما عرضَ لهذا عرضَ لذاك، مع شيءٍ من

التَّشابه والتَّفاوت أحيانًا، وإن كنت مع ذلك أومنُ أنَّ للعرق والمنشإ والثَّقافة فضلاً عظيمًا في تمييز النَّاس بعضهم عن بعض، وأنَّ مسقط الرَّأس يحرِّرُ الطَّاقات، أو يسجنُها. إنَّ قريةً أو مدينةً نائيةً عن الحضارة، مسجونةً بظلام لا تطلعُ عليه الشَّمس، وقد رُبطَت عقولُ أبنائها بالقيود والسَّلاسل، لا يمكنُها أن تخرَجَ للدُّنيا بعظيمٍ من العظماء يومًا، إن لم يبزغ النُّورُ فيها وتتحطَّم الأغلالُ الفكريَّةُ لدى أبنائها.! ولو قُدِّرَ لعظيمٍ في المواهب ممَّن نعرفُهم في مَشارق الأرض ومَغاربها، أن يلدَ في مثل هذه القرية، لضاعَ مع الضَّائعين من أبنائها، وعاشَ ميتًا بين المَوتى من أولادها، ولَما كان لنا أن نعرفَ له، اليومَ، أثَرًا، ولكانَ المسكينُ في تلك القرية التعسية يحسبُ ضلالَه هدًى، وموتَه حياةً في الكهف المُظلم!

لم تكُن، يا أبي، ملكًا من الملوك! بل أنتَ عندي أعظمُ منهم جميعًا! أوَلَم يكُن بين أولئك النَّاس مَن دخلوا زحام البشر وكذبوا، واحتالوا، وظلموا، وقتلوا عن شمالهم ويمينهم، وسفكوا الدِّماء، وشقُّوا طريقَهم بالسَّيف، إلى أن وصلوا العرشَ فوق الجماجم؟! أوَلَم تكُن تملكُ في قلبك من المحبَّة للنَّاس ما يَرقى بك فوق أعلى العروش، وأسمى المراتب؟! أوَلَم تكُن لك من أسرتك مملكة عظيمة، أقمتَها بالكَدِّ، والعذاب، والفَقر، وبَنَيتَها على الصِّدق، والأمانة، والإخلاص؛ ورفعت أعمدتها بالمحبَّة والتَّضحية والاجتهاد؟! أوَلَم يكُن تاجُ الشَّوك المرذول الَّذي وضعوه على رأس السَّيِّد المسيح محتقرًا ومهانًا، أعظمَ تاجٍ وُضِعَ على رأس أعظم ملك في هذا العالم، يوم لم يكن له عساكر أرضيَّة، وجيوش، وحصون، وقلاع ، وجوارٍ، وخدم، ولم يقبض على سيف؟! ما كان الله بخيلاً ليمنحَ الموهبةَ هذا، ويمنعَها عن ذاك؛ وهل العظماء الَّذين نعرفُهم هم وحدَهم الَّذين أتَوا إلى التَّاريخ؟! أوَليس هنالك من العظماء مَن نجهلُهم، ولم تصلنا أخبارهم ممَّن كانوا من الرُّعاة، والجنود، والفلاَّحين،

والفقراء، والخدّام، وذنبُهم أنَّ أحوالَهم وظروفَهم لم تُسعِفهم كي يخرجوا للدُّنيا بما لديهم من مواهب؟! ذلك أنَّ الله منحَ المواهبَ سائرَ أبناء البشر من أجل قيام العالم، دونَما فرق، وإنْ تنوَّعَت وتفاوتَت في القوَّة والبهاء والشَّرف!

ولم تكُن يا أبي رئيسًا من الرُّؤساء، بل كنتَ فلاَّحًا وطنيًّا بين فلاَّحي بلادنا الشرفاء، في قريةٍ تَحيا على البراءة، ويُحيطُها طهرُ الحقول، وشموخُ الجبال في سفوح الجليل المِشماخ! وقد اشترى الأرض، وكسَّرَ صخرَها، وسوَّرَها بالسَّلاسل من حجارتها، وغرسَها من الشَّجرة المقدَّسة بساتين فسيحة. ومع ذلك، لم تنسَ يا أبي يومًا ، أنَّ خيرَ الفلاَّحين في هذا العالم، أولئك الَّذين قبل أن يخرجوا من هذه الدُّنيا، غرسوا حقولَ الحياة، وبساتينها غرسًا حســنًا من الأبناء البَرَرَة، والبنات الفاضلات، ليجتنيَ النَّاسُ من شجرهم كلَّ ثمر صالح! أولَم يقُلِ السَّيِّدُ المسيحُ له المجد: "**كلَّ شجرةٍ جيِّدةٍ تُعطي ثمرًا جيِّدًا**"؟!

لم تكُن قدِّيسًا! لكنَّك كنتَ تقيًّا وَرِعًا، لك ذلك الوَرَعُ الَّذي ألقَته في قلبك حياةُ الرِّيف ببراءتها، وأمومةُ الأرض بصِدقها، وتجربةُ الأيَّام بقَسوتها؛ وكم كنتَ دعوتَ السَّيِّد المسيح مرارًا كي يتَّكِئَ في منزلك، أطعمتَه، وسقيتَه، وصنعتَ له وليمةً عظيمةً في بيتك، وحملتَ الصَّليبَ وتبعتَه، وقد حدث ذلك كلَّ مرَّةٍ كنتَ تُحسنُ للمساكين، والمطرودين، والمحتاجين الَّذين يسكنُ المسيحُ فيهم، وقد أتى العالَمَ من أجل عزائهم! آوَيتَ **نعيمة** اليتيمة المطرودة، وأسكنتَها في كنفك أشهرًا، وحنوتَ عليها حنوَّ أبيها وأمِّها! وعاديتَ في سبيلها الَّذين جاروا عليها، وسَلبوها حقَّها؛ وما أعظم بين النَّاس مَن لا يرضون إلا نصرة الحقّ، وفي سبيل نصرته لا يبالون بما يخسرون، وينفقون، وما يلاقون في سبيل ذلك من أذًى وعقـــاب واضطهاد، كذلك لا يردُّهم عن ذلك جبنٌ أو نَفع! ما زلتُ أذكرُ

يومَ تكلَّمَتْ، ودموعُها تنهلُّ من عينَيها قائلةً: "عِشتُ في كنف عمِّي نعمان أشهرًا، مطرودة من أبناء السُّوء، فعزَّاني، وقوَّاني، وسقاني، وأطعمني، وجعلَ قلبَه فراشي، وصدرَه منزلي، أغبُّ منه كلَّ حنانٍ وكلَّ رأفة! لن أنساه حيَّةً ومَيْتَة، رحماتُ الله عليه كلَّ صباحٍ ومساء. هكذا فليَكُنِ الرِّجال، ولا عاشَ النَّاسُ إذا لم يكونوا بقامتك أيُّها الرَّجلُ الهمام!".

أولَم تستضِفْ غرباء تحلَّقوا في العراء ساعةَ الغروب في الشِّتاء القارس، حولَ نارٍ أوقدوها في الصَّقيع تحت نافذة الكنيسة، ولم ترضَ مروءتُك إلاَّ أن تخرجَ إليهم، وتستضيفَهم في منزلك، وتقضي لهم حقوقَ الضِّيافة والمَبيت! ومن أين لي أن ألمَّ بكلِّ مآثرك، وحكايات النُّبل، والشَّجاعة، والشَّرف الَّتي تحكي عن مغرسك الطَّيِّب، وأصلك الزَّكيّ؟!

.. لم تكُن "زعيمًا "واحدًا من سماسرة الأرض، تتقاضى عنها الذّلَّ والخيانة، ولم تَبِعْ شبرًا واحدًا من تراب الوطن مقابلَ أجرٍ رخيصٍ ودنيء، بل كنتَ واحدًا من الَّذين دافعوا عن قريتك بين صفوف الفلاَّحين المدافعين عن قراهم في الجليل؛ وساعةَ سقطَتِ القرية، ورفعتم الملاحفَ البيضاء أمام القوَّات اليهوديَّة، وغصَّتِ القريةُ باللاَّجئين المطرودين الَّذين وفدوا إليها من ترشيحا، وعمقا، وكويكات، والبروة، والدَّامون، كنتَ فتحتَ مع أبناء قريتك أبوابَ منزلك لأولئك المنكودين، تطعمُهم، وتسقيهم من قلبك حبًّا، ومن نفسك بسمةً وأملاً عظيمًا على رجاء أن يعودوا بعد حين منازلهم الباكية!

كم كنتُ فخورًا عندما كنتَ تشخص إليها وتقولُ لي: "أنظُر هذه الكنيسة! ليس بينها حجرٌ واحدٌ من أحجارها إلاَّ حملتُه وناولتُه بيدي للبنَّاء من صفد"؛ وهكذا عَلا البنيانُ وشمخَ بهمَّة إيمانك، وغدا النَّاقوسُ يترنَّمُ فوقها كلَّ يوم أحد، مع أغاريد الجليل وأطياره النَّشوى عند الصَّباح! فلا عجَبَ أن تكونَ لكلِّ لمسة حجــرٍ من أحجارها المقدَّسة، شحنة إيمان فيك

من السَّيِّد المسيح، نفختْ فيك مشاعرَ التَّقوى، والوَرَع، والمحبَّة الَّتي أوصى بها تلاميذَه القدِّيسين. أعدَّ الله لك على هذه الخدمة الجليلة، ما عنده من الجوائز والأكاليل السَّماويَّة في منازله العليَّة!

رآك بعضُ النَّاس معوجًّا ملتويًا، لأنَّك كنتَ مستقيمًا، صارمًا في استقامتك، تمقتُ الالتواءَ والاعوجاج. وكدَأب الكرام من الرِّجال في كلِّ مكانٍ وزمان، قضيتَ عمرَك سجينًا لدى الَّذين أحسنوا إليك، وأسيرًا عند كلِّ مَن أسدى لك فضلاً من أهل المروءة والشَّهامة والكَرَم!

علَّمتَني الصَّبر، وأنَّني، إنْ جعتُ، آكلُ من جوعي، وإنْ عطشتُ، أشربُ من عطشي؛ ولا أبوح بجوعي وعطشي يومًا لأحد. تعلَّمتُ عند قدمَيك، أنْ أعصبَ جرحي بالبسمة إنْ توجَّعتُ، وأُضيءَ روحي بالأمل إنْ يئستُ. أوصيتَني قائلاً: احترِسْ دائمًا، كُنْ "وديعا كالحمام، وحكيمًا كالحيَّات"، ولا يغرنَّك المراؤون في هذا العالم. لا تعدم في هذا العالم أنْ تلقى زهرةً عاطرةً تبعثُ أريجَها إلى كلِّ ناحية، وحين تتشمَّمُها، تلقاها شوكةً سامَّة، قد فقأتْ عينَيك، ووخزَتْ شفتَيك. قد تطمئنُّ مرَّةً وتسندُ رأسَك على صخرة تحت شجرة ظَليلة ساعةَ الحرّ، وتستريح، فلا يمضي وقتٌ قصيرٌ إلاَّ والصَّخرةُ تتلوَّى تحتك، وتجأرُ توجُّعًا، وفجأةً، تُخرجُ إليك من بين رجلَيها أفعوانًا يطوِّقُ عنقَك، ويملأُ فمك من سمِّه المُميت! يا بُنيّ، ستلقى من سلالة أولئك الفرِّيسيِّين، وذرِّيَّتهم القتَلَة، ومن أحفاد الإسخريوطيّ، وغرْس الطَّاغوت في الأرض، جماعةً تطوفُ دائمًا بين الأجيال، تتكاثر، وتتناسلُ بين النَّاس في كلِّ مكانٍ من هذا العالم، تتنقَّلُ أرواحُها الشِّرِّيرة من جسدٍ إلى آخر، تُنادي وتهتف: "اصلبْه، اصلبْه"، وتطلبُ دائمًا أن يُطلق لها بارابَّس، وتسوقُ مَن أحسنَ إليها في طريق الآلام، تحت الضَّرب، واللَّكم، والشَّتم، وذنبُه عندها حسناتُه؛ وأمّا خطاياها ففضائلُ عظيمةٌ عندها في العالم!

خيرُ ما علَّمتَني أن أحترسَ دائمًا من الأعداء الثَّلاثة للنَّفس البشريَّة: جسدي الَّذي يحثُّني على الشَّهوات واللَّذَّات، وتكونُ فخاخًا لي في هذا العالم، والشَّيطان الَّذي يلقي على عينَيَّ حجابًا، وفي روعي ضلالاً، يجعلني أعمًى، ويزيِّنُ في عينَيَّ كلَّ إثمٍ وخطيئة، والعالم الَّذي يُغريني بمحبَّة المجد الباطل، ويوقعني بشروره وأطماعه، ويقودُني إلى كلِّ موضعٍ يحجبُ فيه عن عينَيَّ نورَ الله الأزليّ!

مَن لم يعرفِ الحنانَ في هذا العالم، حقٌّ عليه أن يأتيَ إليك ليرى سيولَه، وشلاَّلاتِه، وينابيعَه، وأنهارَه، تجري من قلبك إلى كلِّ شاطئ. وبين كلِّ ربوة، وتحت كلِّ أيكةٍ باسقةِ الأغصان. أذكرُ، يا أبي، يومَ مرضتُ، وكنتُ طفلاً يانعًا، وقد هجمَ الموتُ عليّ، إذ تكنَّفْتَني مع أمِّي بعطفك، وظلَّلتَني بحنوِّك، وداوَيتَني بدعائك وبسمتك، حتَّى طردتَه من البيت، ومنعتَه أن ينزعَني من بين يدَيك، ويجرَّني وراءه فريسةً صغيرة، يأكلُ لحمَها في مغارته العميقة تحت القبور!

وأذكرُ – يومَ ألمَّ بك المرض، وقسا قلبُه، وجاء يعين الفقرَ عليك، وعلى أبناء أسرتك المسكينة من أطفالٍ صغار، وقد أخذتْكَ غيبوبةٌ طويلةٌ على السَّرير في المستشفى – أنَّك كنتَ تهذي باسمي، تناديني وتطلبُني، لأنَّني الصَّغيرُ بين أفراخ العشّ، وقد خفتَ عليَّ العطبَ إذ تركتَني مع أخوتي وأخواتي على غصنٍ عالٍ، تهزُّه العواصف، وتنهمرُ عليه الأمطار، ويلفُّه ثوبُ البَرد، واللَّيلُ مُظلِمٌ يبتلعُ البرق، ويطوي النُّورَ تحت ثيابه فوق الجبال والأودية العميقة!

جَمَّعْتَنا، أخوةً وأخواتٍ، على الألفة، والمحبَّة الَّتي لا تفنى! ولَئِن كان الموت، يا أبي، قد أخذَ نصفَنا إلى العالم الآخر، وتركَ النّصفَ الثَّاني في هذا العالم، إذ غيَّبكَ وأمِّي مع ثلاثةٍ من أخوتي في الأخدار السَّماويَّة، فتيقَّنْ، يا أبي، أنَّنا ما زلنا بمَن رحلَ عنَّا، ومَن بقي منَّا، نجتمـــعُ كلَّ يومٍ

معًا، وعلى كلِّ مائدة، وفي كلِّ ليلة، وفي كلِّ عيدٍ يُقبِّلُ بعضُنا بعضًا، ويُصافحُ بعضُنا بعضًا، ونضحكُ معًا ببشر وبشاشة، ونلتقي كلَّ ليلةٍ في البيت نفسِه الَّذي ودَّعتموه، وكم يعذَوذبُ اللِّقاءُ وأنتَ بيننا تتعقَّلُ العقال، وتزهو بزيِّك العربيِّ الأنيق. وما زلنا كذلك نذهبُ معًا إلى كروم الزَّيتون، وبساتين التِّين، نُصغي إلى ذكريات الدُّروب، وأشواق الصُّخور! يا أبي، نحن والزَّيتونة، والتِّينة، والكَرمة، والأرض، والتُّراب، والحجارة، والبئر العميقة، والبيت القديم، ما زلنا أسرةً واحدةً كما عهدتَها، تربطُها المحبَّة، والألفة، نتلاقى دائمًا ونتسامر. أخواتي، يا أبي، وما أحبَّهنَّ إلى قلبي، جِرارٌ ملأتَها عطرًا، وخوابٍ عبَّأتَها شهدًا؛ وأنا كلَّما جئتُ الزَّيتونةَ في الحقل، فَرحَتِ الزَّيتونة، وابتهجتْ، ورقصتْ بأغصانها، وغنَّتْ بأطيارها، ومدَّتْ ذراعَيها لتضمَّني إليها، فتشدُّني غصونُها وتمسكني بثيابي، لأنَّها تراك فيَّ، وتسمعُك بصوتي، وتلمسُك بيدي؛ فأمجِّدُها لوفائها، وأعظِّمُها لحفظها المعروف، مذ حملتَها أنت مع أخواتها طفلةً برِّيَّة، وغرستَها وسقيتَها وأطعمتَها وربَّيتَها معَنا، فحفظتْ صنيعَكَ، ولم تجحدْ جميلَكَ..! ولا عجبَ أن تكونَ الزَّيتونةُ كذلك، وقد ربَّيتَنا معًا على الوفاء لمَن صنعَ معروفًا معنا، وأحسَن..! يا أبي، إنَّ الأسرةَ الَّتي تعلو إلى الله في السَّماء تعودُ معه إلى تقديس أبنائه من بني البشر على الأرض، إنَّ الوفاءَ قَيدٌ من ذهَب لا يضعُه على يدَيه إلاَّ الأقوياءُ في هذه الحياة ..! إنَّه يشدُّ الإنسانَ إلى أُسرته، ووطنه، ورفقائه، والأسرةِ البشريَّةِ جمعاء، تلدُه المحبَّةُ بين النَّاس، مثلما يلدُها لهم. إنَّه الصِّدقُ الَّذي يجمعُ لا الغدرُ الَّذي يفرِّق؛ إنَّه الأمانةُ على الودائع لا الخيانةُ الَّتي تسرقُ ما ليس لها في الأرض. لولا الوفاءُ لما حفظتِ الزَّوجةُ شرفَ زوجها في غيابه، وما ماتَ حرٌّ من أجل تراب أجداده، وما ضحَّى شريفٌ من أجل أحبَّائه في المَسكونة!

لقد قلتَ لي مرَّة: ما أمرَّ الحياة، يا بنيَّ، وأقساها على الأوفياء في هذا العالم. أصبحتَ أنَّى التفتَّ في هذا الزمن الرديء لا تجِد في أكثر الناس إلاَّ مرائيًا كذَّابًا، أوقاطعًا لليد الَّتي أطعمَتْه، ولليمين الَّتي خلَّصَتْه، أوحافرًا القبرَ للَّذي أحياه، أونازعًا من يدك كي يقتلك، ذلك السِّلاحَ الَّذي به عنه دافعتَ ومنعتَ القتلَ..! أولئك من أبناء الهَلاك، مهما قدَّمتَ لهم من فضلٍ فعبثًا تقدِّم، كذلك لا تستطيعُ قوى الإحسانات العظيمة، مهما حاولتَ، أن تطهِّرَ عروقَهم من حقدهم وحسدهم القاتل! كلُّ شيءٍ يَهون على الحرِّ في هذه الدُّنيا إلا عضَّة نذل، ولدغة خائن، ولسعة جبانٍ حسودٍ ظالِم!

كنتَ، يا أبي، بين الكثيرين الَّذين سمعوا نداءَ السَّيِّد المسيح في هذا العالم وهو يقول: "اتبَعني"، فتركتَ شباكَك الدُّنيويَّة، وأنكرتَ نفسَك، وتبعتَه على وداعتك، وسرتَ وراءه كلَّ حياتك، لا يعنيك من كلِّ تعاليمه سوى خطبتِه على الجبل، ولا يهمُّك من خطبته على الجبل سوى قولِه: "طوبى لصانعي السَّلام لأنَّهم أبناءُ الله يُدعَون"، و"أحبُّوا بعضكم بعضًا، أحبِّوا أعداءَكم، باركوا لاعِنيكم، أحسِنوا إلى مُبغضيكم"، فكانت خبزَك الدَّائمَ الَّذي لا ينفد، وشرَابك الحيَّ الَّذي مَن شربَه لا يعطش، وقد استغنيتَ بذلك عن دجل أكثر الأغربة السُّود الَّذين لم يأتوا إلى الحَضيرة من بابها، بل قصدوا الأرضيَّات لا الأمجادَ السَّماويَّة..! وكنَّا تبعناهُ معك في الطَّريق، وكنتَ تردِّدُ على مسمعي دائمًا أنَّك تبقى وراء السَّيِّد المسيح تلميذًا طاهرًا إلى أن تبلغَ التَّعصُّبَ الدِّينيّ، عندئذ يسقط هذا الكنزُ العظيمُ من يدك، وتفقد للوقت هذه النِّعمة السَّماويَّة، ولا تعود إليك أبدَ الدَّهر. ومع ذلك كنتَ تعلمُ أنَّ هذه الطَّريق للَّذين يسلكونها، طريق الشَّوك، والآلام، والصَّلب؛ لكنَّها طريق الحقِّ والنُّور والحياة في هذا العالم. وما دام الأمر على ما ذكرتَ فانظُــرْ، يا أبي، إلى أثــر المسامير في يدَيّ،

ومكان الحربة في خاصرتي! انظُرْ إلى حيث كان إكليلُ الشَّوك على رأسي! لقد صُلبَ يسوعُ النَّاصريُّ – له المجد – وقامَ في اليوم الثَّالث؛ وأمَّا أنا، فما زلتُ مصلوبًا منذ ثلاثين عامًا، ولم يأتِ يوسفٌ* واحدٌ إلى بيلاطُسَ الجديدِ في هذا العالم، ليُنزلَني عن الصَّليب، ويكفِّنَني في الجلجلة، ويُلقي الحجرَ على قبري! فما أسعدَني بين النَّاس، وأعظمَ فرحي أن أحيا مصلوبًا كلَّ حياتي، دفينًا كلَّ عمري، عسى بذلك أن أشاركَ السيّد المسيح بشيءٍ من آلامه، فيمنحني الغلبةَ على البرابرة، ويعطيني المجدَ العتيدَ والظَّفرَ على الطاغوت! بل إنَّ في صلبي صلبًا لخطيئتي، وحزني، وكآبتي، وصلبًا للفرِّيسيِّين الَّذين صلبوني، وصلبوا معي مَن صلبوا في هذا العالم! إنَّ للأخلاق أثمانًا باهظةً في هذا العالم، وما أعظمَ الَّذين يدفعونها غاليةً جزاءَ ما ينتظرُهم هناك في الملكوت!

عصفَتْ بنا النَّكبات بغيابكَ يا أبي وعصرَتْنا.. وكان لا بدَّ لها، لفظاعتها، أن تذرونا في أعالي الفضاء ولو كنَّا جبالاً رواسي! وإذ أرادتْ بعواصفها أن تطهِّرَ نفوسَنا، وترقِّقَ قلوبَنا، وتوهنَ عزائمَنا، وتزعزعَ إيمانَنا، وتضعضعَ وحدتَنا كفعلها في بعض النَّاس، فقد وجدتْ نفوسَنا طاهرةً، وقلوبَنا رقيقة، وعزائمَنا صلبة، وإيمانَنا وثيقًا، ووحدتَنا راسخة، وما كان لنا كلّ هذا إلاَّ منذ ذلك اليوم الَّذي خرجنا فيه من مدرستك إلى هذا العالم!

يومَ تكونُ الشَّجرة، يا أبي، نبتةً صغيرة، تكونُ أغصانُها ملتفَّة، مجتمِعَة. ويومَ تكبر، وتغدو أيكةً عظيمة، تمتدُّ أغصانُها إلى كلِّ ناحية، وتتفرَّقُ رؤوسُها في كلِّ اتِجاه، وحين يأتي الخريف، ويُعَرِّيها من ثيابها، ويتنفَّسُ الشِّتاءُ فيها بعــواصفه، تتشاجرُ هذه الغصون وتتكسَّر، ويَهــوي

* إشارة إلى **يوسف الرَّاميّ** الَّذي دفنَ جسدَ يسوع المسيح.

على الأرض منها ما قد أتلفَه السُّوس، ونخرَهُ الدُّود، فيضحكُ الشِّتاءُ ببَرقه، ويُغنِّي برُعوده ابتهاجًا بعظمته وجبروته..! هكذا الأخوةُ صغارًا يجتمعون على المحبَّة والألفة حتَّى يكبروا، فيتنافروا غالبًا، وتفرِّقَهم أحيانًا الأهواءُ والمَطامعُ في كلِّ ناحيةٍ، ويستحيلَ كلُّ غصنٍ من غصونهم عاصفةً تكسرُ أخاه، وصاعقةً مجنونةً تستأصلُ الأقربَ إليه! وأمَّا نحن، يا أبي، فقد كنَّا منذ رحيلك، نبتةً صغيرةً بين نبات الأرض من أبناء البشريَّة، لكنَّنا، حين بَسقتْ أغصانُنا، وعظمُ جذعُنا، وامتدَّت فروعُنا، كنَّا سنديانةً جليليَّةً ضخمةً ملتفَّةَ الأغصان، تبقى، كلَّ فصول السَّنة، خضراءَ لا تسقطُ أوراقُها، منيعةً لا يقوى عليها خريف ولا شتاء! بل إنَّ العواصفَ – كلَّما اشتدَّت – تجمعُ فروعَها، وتوِّحدُ غصونَها، وتقوِّي جذعَها، وترسِّخُ جذورَها في أعماق الأرض، ويستظلُّ بظلالها – كي يستريحوا – كلُّ الَّذين أضناهم وهجُ الهموم، وأنهكَ كواهلَهم ثقلُ الأحمال، وما زالت العنادل فوقها تستقبلُ الصَّباح بالأنغام والأناشيد، كذلك تأوي إليها الأطيارُ من الأماكن البعيدة، عند المغيب! كلّ ذلك، يا أبي، لأنَّك ألقيتَ بذارَنا، لا على الطَّريق فيأتي الشِّرِّيرُ ويخطفُ المَزروعَ في قلوبنا، ولا على الصَّخر فينمو المَزروعُ فينا قليلاً ثمَّ تُميتُه الضيّقاتُ والاضطهادات، ولا بين الشَّوك فيخنقه عندنا غرورُ الغنى، بل ألقيتَ البذارَ على أرضك الخصبة، يروِّينا برُّك، ويحفظنا نصحُك، ويسيِّجنا تعليمُك الطَّاهرُ بعد نعمة الله علينا وسلام السَّماء!

يا ابنَ خير أبٍ وأمٍّ نشأتَ في ظلال جودهما وسخائهما، أولَم تقُلْ لي إنَّ كرمَ أبيك قد أسقط السِّلاحَ من يد مجرمٍ أرسلَه الحسَّادُ ليلاً لقتله، زورًا وظلمًا؟! ورماه أمام عينيك بعيدًا وقد عاد إلى أهله مكبّلاً بفضلك..! للهِ ما أعظمَ ما يصنعه الجميل عند كِــرام النَّاس..! حقًّا لقد صحَّ فيك ما

قالَه السَّيِّدُ المسيحُ له المجد: "الشَّجرة الجيِّدة تُعطي ثمرًا جيِّدًا، ولا تستطيعُ الشَّجرةُ الجيِّدةُ أن تعطيَ ثمرًا رديئًا".

أيَّتها الحياةُ المقدَّسةُ الجميلة، والآنِيَةُ السَّماويَّةُ على الأرض، ألتمسُ صفحَك، وأعتذرُ إليك باسم جميع أجيال البشر الَّذين اتَّهموكِ وشوَّهوكِ وأبغضوك وعَيَّروك، وغَيَّروك، وقتلوا براءتك، وأهلكوا حسنَك وجمالَك! ذلك أنَّ بَني البشر هم أنفسهم الَّذين يصنعون الحياةَ أوَّلا، ليأتي دورُ الحياة بعد ذلك كي تصنعَ بَني البشر ثانيًا، وما الإنسانُ على الأرض إلاَّ صانِعٌ ومَصنوع، والمَصنوع فيه يأتي على مثال الصَّانع..! من أجل هذا ، كان أحرى بالإنسان أن يحسنَ صناعةَ نفسه، لتُحسنَ الحياةُ صنعَه؛ وإن مَن أراد للحياة أن تصنعَه على غير ما رغب وأرادَ من القبح، واللُّؤم، والحسد، والأمراض الرُّوحانيَّة الكثيرة الَّتي فيه ، وَجَبَ عليه أن يكسرَ يدَ صانعه، ويعطيه الماء والطِّين الَّذي يريد، من أجل أن يبلغَ الكمالَ في هذا العالم! إنَّه لَمِن الظُّلم أن نتَّهمَ الحياةَ بسوء صناعتها، ورداءة فعلها فينا، ما دام الصَّانعُ فيها يشهدُ أنَّنا نحن، ولا أحدَ سوانا من الكائنات الحيَّة على الأرض، والويلُ للَّذين يرضون بما صنعت منهم الحياة، ولا يعودون إلى الفاخوريِّ الَّذي في نفوسهم، ويحثُّوه، ويجتهدوا أن يُصلحَ لهم ما قد أصابَهم من فساد وعطب..! هي الحياةُ منذ الأزل، صراعٌ دائمٌ بين الأحياء والأموات! الأحياءُ الَّذين يحيون بأخلاقهم، والموتى الَّذين قتلوا أنفسَهم بخطاياهم وهم أحياء. وقد ضلَّ بين النَّاس مَن ظنَّ أنَّ قبورَ النَّاس لا تكون إلاَّ تحت الأرض ومنذ القِدَم؛ ولم يَدرِ أنَّ القبورَ الَّتي فوق الأرض، والَّتي تمشي من لحمٍ ودمٍ بأصحابها أكثر بكثير من الَّتي تحت التُّراب في هذا العالم!

أذكر، يا أبي، وكنتُ صغيرًا يومَ دخلَ الموتُ عليك فجأةً، وخرجَ وبين فكَّيه أجمــلُ بناتك **مارية** الحبيبة، ملاكًا طاهرًا حرقَك غيابُه عنك،

ونزعَ بيدَيه من قلبك كلَّ فرح؛ ورُحتَ تُولولُ وتَنوحُ واضِعًا يدَك على قلبك طوال عمرك، حيث يوجعُك الجرحُ العميق، ويسيلُ في أغلى أولادك، وأحبَّهم إلى قلبك.. وصبرتَ، وتجلّدتَ، وقد عرفتَ إذ نبَّهتكَ المصيبةُ إلى أنَّ الأيَّامَ ظالمةٌ حقّــًا، وغليظةُ القلب، وقد تُصيبها أحيانًا كثيرةً نوبةُ جنون، فتدخلُ الحدائقَ الجميلة، وتمشي فوق الأزهار العاطرة، وتسحقُ تحت قدمَيها الورودَ النَّديَّة..! كنتُ ذلك الحين أنظر إليك، فأجد قامتَك لفرط جزَعك عليها قد انحنَت.. وما كنتُ رأيتُها يومًا قد انحنَت للحمٍ ودم، إلاَّ لخالِقها عند صلواتك..، وفي ذلك الحين شاهدتُ البسمةَ قد حملتْ نفسَها، ورحلَتْ عن فمك قبل طلوع الفجر، ولم يَدرِ أيٌّ منَّا إلى أين ذهبَتْ ولم تَعُد..! كذلك، وبفعل تلك النكبة التي حلــّت بمنزلك، نظرَ السُّرورُ إلى قلبك، ورأى أنَّه لا مكانَ له بَعدُ في صدرك، وخرج، ولم نسمعْ بوَقع قدمَيه منذ أن طرقَ الأبوابَ خلفَه حزينًا، ووَلَّى بعيدًا عنك ولم يرجع..! وكنتُ أومنُ يومئذٍ أنَّ البشر الضَّعيف من لحمٍ ودمٍ هو الَّذي يبكي فيك، لكنَّ المؤمنَ الَّذي في صدرك كنتُ أسمعُه دائمًا يردِّد: "تعالوا إليَّ يا جميع المُتعَبين والثَّقيلي الأحمال، وأنا أريحُكم". وأنكرتَ أنَّ **ماريةَ**، أختَ الملائكة، قد ماتَتْ حقًّا، بل انتقلَتْ إلى الجانب الآخر من الحياة الأبديَّة. ما أشجعَكَ وأشدَّ إيمانَك حين قلتَ: أين هو الموتُ في هذا العالم؟! لقد قبضَ عليه يسوعُ النَّاصريّ، ونزعَ روحَه بيده، ووضعَه في النَّعش، وأرسلَه مَيْتًا إلى الأبد! ورضيتَ بالمصيبة، وقبلتَ الآلامَ بفرح، راجيًا أن تكونَ آلامُك مشاركةً منك للسَّيِّد المسيح في آلامه على الصَّليب، وبعضًا من طعنةِ الحربةِ في خاصرته، قبل أن تُظلمَ الدُّنيا ويتمزَّقَ حجابُ الهيكل!

وأمِّي، ويَحَ أمِّي في ذلك العهد الكئيب، يومَ سمعَتْ ابنتها والموتُ على الأبــواب واقفٌ ينتظرُ انتهاءَ موعد الوداع على السرير، قد لفظَت

آخرَ كلماتها، توصيها بطفلَيها، ثمَّ أغمضت عينَيها، ويدُها قابِضَةٌ على يدها تكلّمها بقبضة أصابعها ، وقد أسلمَتِ الرُّوح، وذهبَت مع الملائكة الأطهار إلى الأخدار السَّماويَّة. وأمِّي! ما فتِئَت أمِّي، منذ ذلك الحين، إلى أن وافاها أجلُها، تغيبُ عن المنزل فجأةً وتختفي، ولا ندري إلى أين تذهب، فنخرجُ نفتِّشُ عنها ليلاً لنَلقاها وقد سارَت وحدَها خِفيَةً إلى القرية المجاورة، وهناك جلسَت عند ذلك القبر الحبيب تصرخُ وتنادي، تبكي وتنتَحب! وبعد ذلك الرحيل الحارق لم يَرضَ حنانُكما، أنتَ وأمِّي، إلاَّ أن تحتضنا الطِّفلَين الحبيبين، أنت يرفرفُ قلبُك فوقهما بحنوِّه، وأمّي تزقُّهما ثمّ تجمعُهما تحت جناحَيها كالعصفورة الَّتي تجمعُ تحتها فراخها عند ضياع الضَّوء في وقت المَغيب!

علَّمْتَني الصَّبرَ والعَزم، وأنْ تمدَّ الصَّخرةُ يدَها إليَّ وتستجدي منِّي، صلابتي، وأن تستوقفَني الجبالُ لتستعيرَ ثباتي عندما ينفخُ الدَّهرُ من جوفه بصواعقه، ويخرجُ مجنوناً يبحثُ عن ضحيَّةٍ جديدةٍ، وفريسةٍ بريئة بين النَّاس! وكنتَ تعرفُ، يا أبي، أنَّ بيننا وبين الموت عداواتٍ قديمة، وأنَّ له ثأرًا قديمًا عندنا، وأنَّه لن يكفَّ عنَّا حتَّى يشربَ من دمنا، وينهبَ أنفَسَ ما في خزانتنا، ويطأَ بقدمَيه فوق أجمل أزهارنا! وكأنَّك، بسبْق عِلمك، كنتَ أعدَدتني لكلِّ خطبٍ وخطر، وإخالُك يا أبي كنتَ نظرتَ من العلاء، وسمعتَ صرختَنا حين عادَ الموتُ إلينا، وبعثَ باثنَين من أسوإ أبنائه وأقساهم قلبًا، لا يجدي معهم دواءٌ ولا ينفعُ طبيب، وقد كمَنَا لنا واستَتَرا وراء الشَّجر، حتّى قتلَ الأوَّلُ منهما فتاك البكر ساعةَ كان يتسلَّقُ الأماني العالية بين السُّحب، شابًّا من غصون الرّند نديًّا، وقضيبًا من الرّيحان نضيرًا. هناك، يا أبي، فاضَتِ المسكينةُ أمِّي مرَّةً أخرى، وجعلَت أرضَ المنزل بحيرةً من دموعٍ لا تجفُّ ولا تنضب! وبعد ذلك، ولم يَمضِ سوى أربعــةِ أعــوام، حتَّى خــرجَ الموتُ الثَّاني من مَخبئه

بين الأدغال، وأمسكَ عند السَّفح من الحياة بإحدى بناتك، نرجسة نيسان، وأقحوانة الجليل، وإذ خرجتُ أصدُّه، وأدفعُ بقلبي أنيابَه، لم يردَّه عنها ضربُ السُّيوف على العنق، ولا وقع الرِّماح فوق الخاصرة. وأخذَها، وولَّى هاربًا فعلَ الجبان مُقبلاً ومُدبرًا، بعد أن وخزَ في صدر أمِّي سيفًا وقتلَها، يوم دعاها الله إليه وفارقتْ..! وفي ذلك المأتم الرَّهيب، التفَّ الأبناءُ والأحفادُ والأخوةُ والأخواتُ باكين بمرارةٍ حول ذلك النَّعش الَّذي تُقيمُ فيه ثلاثةُ نعوشٍ من أبنائها الَّذين احتفظَت بهم في صدرها كلَّ حياتها، ليذهبوا معها ثانيةً إلى العالَم الآخر!

.. كنَّا صغارًا نتحلَّقُ حول طبقٍ واحدٍ، ونأكل، فتضيقُ بنا الدَّائرةُ، فنجلسُ جنبًا إلى جنبٍ مُنحَرِفين، يوحِّدُنا الطَّعامُ الواحد، ويجمعُ بينا الرَّغيفُ الواحدُ الَّذي عجنَته أمّي، وخبزَته بيدَيها، ولوَّحَت به، ثمَّ ألقَته من كارتها على الصَّاج قبل طلوع الفجر. وكم كنَّا نستفيقُ مع الجيران على وَقع ضربات كفَّيها وهي تدحو العجينَ على الخشب "بالشَّوبَك" الهَرِم. وكم كان ذلك الطَّعامُ المَطبوخُ بالفَقر والمحبَّة والبَراءة أشهى طعامٍ تحت أسناننا! وكم كان ذلك الرَّغيفُ المَخبوزُ بالحنان والعاطفة عاطِرًا من يدَيها، نشتمُّ فيه أمَّنا، ونتنشَّقُ رائحةَ قلبها، ونذوقُ فيه طعمَ أبوَّتك الزَّكيَّة، ونسمعُ أنفاسَ محراثك بين الحجارة والرّغام!

.. كنَّا في الشِّتاء، ليلاً، نجتمعُ حول الموقد، ينصتُ الدَّاخونُ معنا إلى حكاياتِ البطولة والرُّجولة الَّتي تُلقيها على مسامعنا، فنفكِّرُ ونستمتعُ ونفرح، ثمَّ نحتدُّ ونغضبُ ونحزن، ثمَّ تنفرجُ العقدة، وأنتَ تشوِّقُنا إلى النِّهاية بأسلوبك البَديع، ترانا خُرسًا لا نتكلَّم، لا يقطعُ صمتَنا غيرُ شَخير النَّار حين تتلوَّى فوق الحطب، والعواصفُ الَّتي جمعَت كلَّ طيورها تصفرُ وراء النَّوافذ والأبواب. نريدُك أن تُكمل، ولا تتوقَّفَ عن السَّرد إلى أن يغلبَ الحقُّ الباطــلَ، ويَمحوَ الصِّدقُ كلَّ كــذبٍ وزور! كذا كنتَ

تجمعُنا بقصصك الطَّريفة على مناصرة الحقّ، ومناهضة الباطل، وتحبِّب إلينا الشَّجاعة، والمروءة، والسَّخاء، والمُثُلَ العظيمة. حقًّا، إنَّ اللِّسانَ الَّذي يمتدُّ ليُعطيَ القلوبَ والعقولَ قِيَمًا وأخلاقًا لبَني البَشَر، خيرٌ من اليد الَّتي تمتدُّ لتُعطيَ التِّبرَ والذَّهب!

قلتَ لي: أحسِنْ إلى النَّاس دائمًا، إنَّك بإحسانك تضعُ "جمرًا على رؤوس الأشرار" منهم ، حقًّا إنَّ الإحسانَ إلى النَّاس أعظمُ ينابيع السَّعادة في هذا العالم كما قلت يا أبي، غيرَ أنَّ مِن النَّاس يا أبي مَن لا رجاءَ لهم في هذا العالم، ولا موضع للجمر على رؤوسهم، ممَّن يكونون عمَّالاً للطَّاغوت وخَدَمًا له في حقوله الواسعة، يبعثهم لِمَن يشاء ويحرِّضهم على مَن يشاء في البلاد، أولئك يومَ أحسنَّا إليهم ازدادوا بغضًا لنا، إذ عدّوا إحسانَنا عندهم ذنبًا لنا وخطيَّة، فتأمَّلْ!! وعلى الرَّغم من ذلك لم نكترثْ ولم نبالِ، بل ازدَدنا إحسانًا إليهم بعد إحسان، فازدَدنا بإحساننا سعادةً، وأمَّا هم فازدادوا ببغضائهم شقاءً مميتًا من ذلك النوع الذي لا يلقَى النَّاس مثيلاً له يومًا إلاَّ في أعماق الجحيم..!

أوصيتَني بطول تجربتك أن أُحسِنَ اختيارَ رُفقاء الدَّرب المُخلِصين، حتَّى لا تُلِمَّ بي صاعقةٌ من ندمٍ يومًا، وقلتَ لي بلغة الفلاَّح المجرِّب الَّذي خبرَ أوانَ الزَّرع وطُرُقِه: إنْ لم تُحسِنِ اختيارَ البذار فسوف تقضي عمرَك كلَّه سدًى تحرث، وعبثًا تزرع وتصونُ حقولَك وتُنَقِّيها من الشَّوك والعَوسَج؛ ويومَ يأتي الصَّيف، وتذهب إلى حقولك لتحصد النَّاسَ الَّذين زرعتَهم وسقيتَهم، وتجمعهم على بَيدَرك، وتؤمِّل من البَيدر أن يأتيَك بالغلال الكثيرة، فإنَّك لن تجنيَ بعد العناء والتَّعب إلا التِّبن والحسك والزّوان، وقليلاً من حبَّات القمح فوق بَيدَرك! ففتِّشْ، يا بُنيَّ، قبلَ الزَّرع عن القمح الجيِّد، حتَّى لا تعودَ من البَيدَر وليس معك إلاَّ المذراةُ والنَّورج..!

لله يا أبي، حسبي غنًى وسعادةً أنَّ المحبَّةَ خيرُ ميراث كنت أعطيتني مفاتيحَه قبل فراقك إلى العالم الآخر، بل ما أمتعَ الحياة وما ألذَّها في النَّفس! ولا تكونُ كذلك إلا بالمحبَّة الَّتي تطهِّرُها من أدناسها، وتجعلُ النَّاسَ كلَّهم أسرةً واحدة، وتأتي لهذا العالم بالخلاص من شقائه، والشِّفاءِ من أمراضه، بالمودَّة، والسَّلام، والصّفحِ عن الذنوب، ونكرانِ الذَّات، والتَّضحية؛ ولا تبلغ الحياة هذه المرتبة إلا إذا غلبَ كلُّ إنسانٍ نفسَه، وفتحَ أبوابَها المُغلَقَةَ أمام الله ليُقيمَ فيها مع كلِّ النُّفوس في هذا العالم!

أعتَزُّ أنَّك أبي، أُجلُّك وأوقِّرُك لأنَّك على هذا النَّهج سرتَ، وسرنا معك. وحقّك عندي، إنَّه، لو قُدِّرَ للنَّاس يومًا أن يختاروا آباءَهم وأمَّهاتهم قبل ولادتهم، ولو أنَّ نسمة روحي قبل أن ألد، كانت تائهة في أقاصي الأرض وأطراف الزَّمن، لخضتُ عبابَ السِّنين والعصور، وطفتُ الأجيالَ كلَّها، وقطعتُ قارَّاتِ الدُّنيا بأسرها، وجُبْت قراها ومدنَها، ووصلتُ في هذه القرية من هذه البلاد إليكما ، أبي وأمّي، لأنَّكما، ومَن معكما من الآباء والأمَّهات الأبرار، إناءُ وداعةٍ وقارورةُ براءة، ومدارسُ نور، ومعاهدُ محبَّة، ولكن، بغَير أقلامٍ وكُتُب!

أين الأزاهيرُ التي كانت هنا؟!

ماذا جنيتِ، أيَّتها الحرب، وما الَّذي صنعَتْه يداكِ؟ اكشفي لنا عن أنيابك لنرى لحمَ الأطفال في فمكِ، وافتحي كفَّيك وألقي من يدَيك قلوبَ الأمَّهات الثَّاكلات الَّتي نزعَتْها أصابعُكِ! انفضي عن ثيابك غبارَ المنازل الَّتي سقطَت تحت قدمَيكِ؛ أخرِجي من أحشائك القرى الَّتي ابتلعتِ، والبساتينَ الَّتي التهَمتِ، والجماجمَ الَّتي أكلتِ تحت أوشاب التُّراب! أين الأزاهير الَّتي كانت هنا يومًا؟ تعسًا لكِ، لقد زرعَها الرَّبيعُ بيدَيه، وسقاها في كلِّ ربوةٍ وروضة، فخرجتْ كلُّها بأكاليلها تمشي في جِنازة الأزهار الَّتي اقتلعَتْها يدك من بيوتها شبابًا عطِرًا، وزرعَتْها كفّــك في ظلمة القبور، بعد أن بلَّلَتْها بندى الدُّموع من أعين الباكين! اخلَعي نعلَيكِ، إنَّ على نعلَيك أثرًا للابتسامات الَّتي وطَئتها قدماكِ، يومَ جعلت للأطفال قبورًا بين الرّكام! الويلُ لك كم تلذُّ لك مواكبُ الأموات، وما أحقرَك حين يطربُك سجعُ النَّادبات عند صمت العنادل!

ليتَكِ أمٌّ، أيَّتها الحرب، ينزعُ موتُ الأبناء فؤادَكِ، ويضعُ جمرةً في صدركِ، ويلقي صخرةً فوق أضلعكِ، وينشرُ ظلمةً في محيَّاكِ، ويطلقُ نواحًا من شفتَيكِ، لِتَعلمي، أيَّتها الحرب، هولَ ما صنعتْ يداك للمساكين في أرجاء هذا الكون الفسيح!

ليتَ لكِ منزلاً، أيَّتها الحرب، حملَتْه الصَّاعقةُ بقرونها إلى أعلى، ورمَته خلفها خرابًا، لِتَذوقي يومًا طعمَ العذاب، كآلاف الفقراء والنَّازحين الَّذين شرَّدتهم جرائمُكِ في كلِّ مَوضعٍ من هذا العالم!

أيَّتها الجنِّيَّةُ الخَرقاء، ليتَ لكِ أطفالاً تدفنُهم أيدي الزَّلازل تحت الرّكام، لِتَأكلي ثدييكِ من شدَّة الجَزَع، وتصنعي لكِ من الشَّوك ثوبًا، وتقضي عمرَك على الجَمر والرَّماد في البرِّيَّة من سَوْرة الحزن والشَّجن!

ما زلتِ، أيَّتها الحرب، منذ أن بزغَ الفجرُ على البشريَّة، تسيرين في الأرض يصحبُك الجوع، والدُّموع، والمرض، والخراب، وكلُّ رفقاء الشُّؤم من بَني البَشَر! تمشين، فتتبعُكِ الجرائمُ، فتأكلُ بذئابها الأبرياء؛ وتتنفَّسين، فيخرجُ الموتُ من أنفكِ، والنَّارُ من فمكِ! ولقد كنتُ واحدًا بين الَّذين شاهدوكِ مرارًا تحملين الأطفالَ في الشَّوارع على كتفَيكِ بلا رؤوس، وتغطِّينهم بالدُّخان، وبالنَّار الَّتي لا تنطفىء! ورأيتُ الموتَ بأمرِكِ ومشيئتكِ، وفي كلِّ قريةٍ ومدينة، يدقُّ على الأبواب، ويدخلُ البيوتَ، ويخرج، ومعه جموعُ الموتى من المساكين يَسوقُهم أمامه في الطَّريق إلى القبور!

سحقًا لكِ، يُطيعُكِ الموت، ويحملُ بين ساعدَيه كلَّ طفلٍ رضيع، لا يُلقي عليه التُّرابَ إلاَّ وفي عينَي الطفل دموعٌ تؤنِّبُه على ما فَعَل، وفي سمعه نواحُ أمٍّ يوبِّخُه أينما ذهب! ولم تخجلي من جُبنكِ يومَ رأيتُ يدَكِ تمتدُّ إلى شيخٍ عجوز، وتضربين بكفِّك قلبَ امراة! تحبسين أصواتَ الحقِّ في الأقفاص دائمًا، وتكتمين فم السَّلام كيلا يتكلَّم؛ وحين يحطُّ السَّلامُ بجناحَيه من السَّماء على الأرض كي يحنوَ على الفقراء ويسعفَ الحزانى، لا يجدُ تحت جناحَيه في كلِّ مَوضعٍ سوى نارٍ أشعلتِها، تمايلت غصونُها، وارتفعَت أفنانُها إلى السَّماء من شدَّة اللَّهب!

ويلٌ لك، ما مِن مَوضعٍ في الأرض إلاَّ فيه منكِ نارٌ تمشي بثيابها الحمراء إلى حيث تأخذُها الرِّياحُ بين البيوت والشَّجر! وما مِن مكانٍ إلاَّ لكِ فيه بركانٌ يبعثُ كلَّ يومٍ حيتانَه تحت الأرض لتُلقيَ عن ظهورها المدنَ مهدَّمَةً، يأكلُها الهلاكُ بأسنانٍ من جمرٍ تحت الرّكام! وما مِن بلادٍ في الدُّنيا إلاَّ حملَ الموتُ منجلَه، وشمَّرَ عن ساعدَيه، وانحنى فوق السَّنابل يحصدُها لأجلك، شتاءً تحت المطر، وصيفًا في أجَّة الحرِّ الشَّديد!

يا شقوتك أيَّتها البشريَّةُ الرَّعنـــاء! لقد سمعتُ سائحًا عائـــدًا من

سياحته، وقد قضى كلَّ عمره يجول في عقول البشر وطبائعهم، وقفَ يقولُ للنَّاس عند عودته من تلك البلاد البعيدة: أيُّها الأبرياء في الأرض والمساكين في كلِّ مكان، لقد طمى الشَّرُّ في النَّاس إلا نفرًا قليلاً منهم؛ فحاذروا أن تصافحوا أحدًا ترونه من أولئك لأنَّكم تصافحون يدَ قنبلة، وتشدُّون على يمين نارٍ تختفي تحت المَلبَس الأنيق! لقد طوَّفتُ في كلِّ مَوضِع، فلا تتعجَّبوا أنَّ بعض ما أرَتنيهِ الحروبُ، وقصَّتْه عليَّ كوارثُها هناك، يشهدُ على أنَّ إنسانيَّةَ الوحوش خَيرٌ من وحشيَّة الإنسان في هذا العالم! وأنَّ للذِّئاب في الغاب، مدنيَّةً أرقى من مدنيِّة الآدَميّين في قصورهم الباذخة! وأنَّ المدنيَّةَ الفتَّانةَ الَّتي تطوِّقُ قلائدُها أعناقَ البشريَّة، وتزدانُ رؤوسُها بتيجانها المموَّهة بالذَّهب، أكذوبةٌ هي من الأكاذيب الَّتي حَكاها الزَّمانُ مرَّةً على مَسمَع سكَّان هذا الكوكب العجيب!

إنَّها الحرب، نزوةٌ من نزوات الجنون تغشى عقولَ الطَّامعين من أبناء البشر، وتشهدُ حقًّا على أنَّ قيامَ البشريَّة على الأرض كانت غلطةً من الغلَطَات الَّتي ارتكبَها الزَّمانُ في هذا الكون البَهيّ. كذلك تدلُّ إلى أنَّ هذه البشريَّة التَّعيسة، حقًّا قد أقلعت من ذلك الشَّاطىء البعيد منذ زمنٍ سائرةً في سفينتها الى عباب الهلاك؛ وأنّها ما تزال في عهد طفولتها، ولم تبلغ سنَّ الرُّشد بعدُ على الرَّغم من تطاول الحِقَب، لأنَّ الزَّمانَ الَّذي ما انفكَّ منذ أقدم العصور، يعلِّمُها مِن كتبه عِبَرًا، ومواعِظَ، ودروسًا، قد يَئِسَ منها، ورمى بكتبه وأقلامه في النَّهرالعميق. وتَاللّهِ، ما زَهِدَ ذاك المعلِّمُ في تعليم هذا الصَّبيِّ الشَّقيّ، إلاَّ لأنَّه غبيٌّ لا يفهم، وبليدٌ لم يعلَم أنَّ الأرضَ الَّتي سخَّرتها السَّماءُ لأبنائها منذ خلق الكون، لن تكونَ يومًا حديقةَ سلامٍ وروضةَ محبَّةٍ لسكَّانها، من دون أن تغلقَ أبوابَها المقدَّسةَ في وجه الطَّامعين من الرُّؤساء والحكَّام، الَّذين يبعثون الحروب من أجل الاستِبداد بالشُّعوب، واستعبادِهم في هذا العالم!

كانَ لي قلبٌ وذوى!

لا تَقُلْ كانَ لي قلبٌ وذَوَى، وحلمٌ وهَوَى، وها أنذا قد تساقطَ ورقُ شبابي، وحطَّمَ السَّيلُ جذوعي، ضعضَعَتني الهموم، وروَّعتني الشَّدائد، لذَّتي تسكابُ الدُّموع على ما فات، حين لم أظفرْ بالأماني الَّتي نكثَت عهدَها معي ومضَت، وتركَتني ساهرًا كلَّ ليلي، أُكابدُ تباريحَ الشَّوق إلى أن جاءني الغسق.! ولا تقُلْ يا وَيلتي لقد هاجَ عباب الحياةُ يومًا، فضربَتني أعاصيرُها وأمواجُها ضربةً جعلَتني أشلاء فوق صخور الشَّاطىء، بعدَ أن حطَّمَتْ كلَّ الزَّوارق الَّتي حَمَلْتُ بها أحلامي وأمانيَّ في هذا العالم!

لا، يا أُخَيَّ! جنَّبَك الله كلِّ يأسٍ وسأم؛ إنَّ النَّسرَ الَّذي كسَّرَ الصَّيَّادُ جناحَه مرَّةً، يأبى إلاَّ أن يبقى نَسرًا في وكره فوق القمم حتَّى يداويَ جرحَه، ويعودَ الى الأثير سيِّدًا في الجوّ، يركبَ الرِّيحَ فوق الآكام والهضاب.! وإنَّ الدَّوحةَ العظيمةَ الَّتي قطَّعَتِ العاصفةُ بالسُّيوف أغصانَها في اللَّيلة الظَّلماء، تنتظرُ حتَّى يعودَ السَّيلُ الى رشده، وتبرأ العاصفة من جنونها، كي تستعيدَ زهوَها، وترتديَ ملابسَها الخضراءَ في عرس الرَّبيع بين السَّواقي والجداول.! وإنَّ النَّهرَ الَّذي ألقتِ السُّفوحُ صخورَها في أعماقه، لا يصدُّه السَّدُّ عن الاندفاع الى البحر موَّارًا، وإن سمعَتِ الجبالُ نعيرَه بين الضِّفاف!

إنَّ للحياة لغاتٍ كثيرةً لا حصرَ لها، ما انفكَّتْ تخاطبُ بها أبناءَها عبرَ العصور. إنَّها لغاتٌ لم يخطَّها قلَم، ولم يجمَعْها معجمٌ من معاجم الأرض يومًا.. انظر إلى الأطيار، وقد أتقنَت أبلغَ لغةٍ بين هذه اللُّغات؛ إنَّها تخرجُ قبل رأْد الضّحى عند كلِّ صبحٍ من أصباح الرَّبيع الزَّاهية، لتقولَ بأناشيدها للعالم: إنَّا معشرَ الأطيار أجراسُ الحياة، تدقُّنا الخمائلُ كلَّ

صباح، ويتردَّدُ طنينُنا فوق كلِّ غصن؛ بعثْنا الحياةُ لنُطرِبَ الأسماع، وننبِّهَ النَّاسَ الى بهاء الخَلق وجمال الكون البديع. ما جئنا هذا العالم، معشرَ البشر، إلاَّ لكي نفرح ونبتهج؛ فهيّا قوموا اطردوا كلَّ غرابٍ ينعبُ في أعماقكم؛ وانزعوا كلَّ شوكةٍ تمتصُّ البهجةَ من قلوبكم؛ صمُّوا آذانَكم إذا نقَّ ضفدعٌ في غلس اللَّيل، واغمضوا أعينَكم إذا تدجَّتْ غيمةٌ سوداءُ حجبَتِ الشَّمسَ عن وجوهكم؛ ولا تَدَعُوا الَّذين يُفسدون في الأرض أن يكدِّروا لكم عيشَكم، بل سُدّوا بأيديكم أنوفَكم عندما تمرُّون بالرّمم البالية؛ وما أيسرَ على الإنسان منكم أن يكونَ مثلنا طائرًا غرِّيدًا يصدحُ على روابيه مثلما نصدحُ فوق روابينا.! إنَّ الأشواكَ الَّتي تنتظرُنا بحرابها فوق السُّفوح، والأفاعي الَّتي تهدِّد أوكارَنا فوق الغصون، والعواصف الَّتي تطاردُنا مع فراخها لتُلقيَ بنا فوق الصُّخور، لن تستطيعَ أن تُقطِّعَ أوتارَ القيثارة الَّتي نحملُها بألسنتنا من عصرٍ الى عصر..! وها نحن، بلا انقطاع، نواصلُ الغناءَ للحياة الَّتي أمرَتنا أن نكونَ لها أوتارًا فوق الرَّوابي والخمائل..! فهلُمَّ انزلْ أيُّها الإنسانُ إلى أعماقك؛ وإنْ أنتَ وجدتَها مُظلمة، قد أطفأ اليأسُ كلَّ مصباحٍ فيها، فأضِئْها كَيْلا يعرفَ المنزلُ الَّذي تحملُه على رجلَيك ظلمةً بعد اليوم.! أطلِقْ روحَك كي تصدحَ معنا، نحن في روابينا وأنتَ في روابيك؛ ولا تنعبْ كَيْلا يقولَ الغراب: إنَّ لنا رُفقاءَ أوفياءَ من بَني البَشَر، يحسنون النَّعيبَ مثلنا، ونفوسُهم تلبسُ ثيابًا سودًا كثيابنا، لكنَّهم لا يبيتون مثلنا فوق أعشاش الخراب..!

أيُّها القانِطون اليائسون، والأحياء الأموات في الأرض! لو أنَّكم أنصتُّم يومًا إلى الَّذين ذهبوا من هذا العالم، لسمعتموهم يقولون لكم تحت التُّراب: ما ندِمْنا على شيءٍ في حياتنا الماضية أكثر من نَدَمنا على ضيـــاع أعمارنا يائسين، يومَ خدعَتنا الكآبة، وسرقَت منَّا بهجتَنا وفرحَنا

حين كنَّا في منازلكم، وجعلَت ظلمةَ حياتنا أشدَّ من ظلمة القبور الَّتي نقيمُ فيها هنا في انتظار يوم الدَّينونة. وإنَّنا، يومَ وردنا مطاحن الموت بين زحام الموتى الَّذين تدافعوا على الأبواب، لم تشفَعْ لنا عند المطاحن دموعٌ نزَفَتْها عيونُنا على ما ضيَّعت أيادينا. وهل ،وأنتم في الحياة ،أغبى من ضائعٍ يفتِّشُ عن ضائع، وذاهبٍ يطمعُ في ذاهبٍ من هذا العالم؟! لقد سمعنا يومَ جئنا قائلاً يقولُ لكم معشرَ الأحياء: تريَّثوا، أيُّها الأحبَّة. لقد فتَّشنا عند قدومنا عن كلِّ ملكٍ جبَّارٍ في القرون السَّحيقة، طغى وبغى، وأزبد وعربد، فلم نعثرْ له على أثرٍ قدْر غبرةٍ واحدةٍ حملَتها الرِّيحُ بمنقارها إلى أعشاشها بين الصُّخور والتِّلال! هي الرّحى تواصلُ الطَّحن، ولا تبالي بكثرة الحصاد على البيادر، بل كم رأيناها سخرت بالحبَّات الَّتي جاءَتها من حقولكم مبلَّلةً بأمطار الدُّموع! فلا ينبغي على شبابكم – والحال كذلك – أن يبكيَ طفولتَكم إذا ولَّت، ولا يحقُّ للكِبَر أن يندبَ الشَّبابَ إذا رحل. إنَّ لكلِّ عهدٍ بشائرَ وذخائرَ ليست في العهد الَّذي انقضى؛ فما أُحيَلى أن يكونَ واحدُنا آنِيَةً يجمعُ فيها بين الطُّفولة والشَّباب والكِبَر. إذا استفاقَ الطِّفل فيه ببراءته رقدَ الشَّيخُ بلَوثته، وإذا نهضَ الشَّابُّ بحَمِيَّته قامَ له الشَّيخُ بعصاه يؤدِّبُه، لتبقى الحياةُ شجرةَ عطرٍ يتضوَّعُ أريجُها دائمًا فوق رؤوس الَّذين جلسوا تحتها ليستريحوا من عناء السَّفر لكي يواصلوا السَّيرَ بعدئذٍ إلى منازل الحياة الأبديَّة!

قُمْ وامشِ، يا أُخَيَّ؛ ما لي أراكَ واقفًا والنَّاسُ قد جدّوا في سيرهم إلى الحياة كي يستمتعوا بمباهجها قبل الغروب؛ قُمِ احمِلْ في الحياة زهرةً شذيَّة، وتنشَّق من شميمها دائمًا، لتروِّحَ عنك في الدَّرب كلَّ ضَنْكٍ وكَرْب! إنَّ الحياةَ قبضُ ريح، وإنَّ بينك وبين الموت دائمًا مسافةً قصيرة هي أقصر من خطوةٍ واحدة، ولو كانت أطول من أميالِ السِّنين لو تأمَّلتَ وتدبَّرتَ. لا تنسَ يومًا قبل أن يُلقي بك المـــوت في أعمـــاق الرّمْس أن

تزرعَها على جانب الطَّريق، لتقولَ الزهرة للَّذين يأتون بعدك إلى هذا العالم: مرَّ في هذا المَوضع يومًا سائحٌ من سُيَّاح الدُّنيا، وتركني ههنا في طريقه إلى ربِّه لأقولَ للعابرين منكم: إنَّ الحياةَ روضةٌ غنَّاء، وما أشقى الَّذين لا يبصرون جمالَها لأنَّ في أعينهم رَمَدًا، ولا يتنشَّقون عبيرَها لأنَّ في أرواحهم زُكامًا ألمَّ بهم بين أسقام هذا العالم!

هنا دفنوكَ، يا قلبي!

إلى روح مَيّ زيادة في الأخدار السَّماويَّة، وفاءً لمَن أحسنتِ الظَّنَّ بالنَّاس كثيرًا، لكنَّها يومَ نظرتْ حولَها أيَّامَ الحَجْر على أملاكها، لم تَجِدْ واحدًا منهم!

وَيحٌ لي ساعةَ كنتُ جالسًا وحدي، أستظلُّ بظلِّ اللَّيل الوارف، كي أحتميَ من حرِّ هذا العالم وقَيظه الحارق، وأعصبَ قلمي النَّازف، وأصغيَ إلى خرير قلبي ومَوجه الصَّاخب، وأدفعَ عن روحي جماجمَ الجمر الَّتي سقطت تُدَهْدِهُها البراكينُ فوق رأسي من كلِّ ناحية، إذ روَّعَني نواحُ أمٍّ في أسبوع الآلام، وقد جاءني يَتهادى في مسمعي من كلِّ مَوضِع، وهي تطوفُ فوق القبور تحثو التُّرابَ على وجهها صارخة: "هنا دفنوك، يا قلبي، وهناك قطَّعوك يا كبدي!". وإذ عبرَني الصَّوت، وقد شاهدْتُه راكبًا خيولَه، تجمحُ به شرقًا، ليحملَ للدُّنيا خبرَ هذا العالَم المفترِس، صرخَتْ صاعقةٌ في فمي: "أيَّتها الأخوات النَّائحات في كلِّ مَوضِع، يا قتيلات الدَّجل والزُّور والعنصريَّة في الأرض، يا مَن لو وضعَتِ الشَّمسُ بسمةً في أفواهكنّ، لاختفَتْ في ظلمة أحزانكنَّ، وانطفأتْ! إنَّ لي قلبًا، أيَّتها الأخوات، ولا كتلك القلوب الجرداء في هذا العالَم، سبقني إليكنَّ حيث أنتنَّ في هذه المسكونة؛ فتعالَيْنَ إليَّ تجدْنَ أبوابَه مفتَّحَةً لاستقبالكنَّ في هذا الوهج الحارق! ويا أيُّها المعذّبون في الأرض حيث أنتم، أنا ما زلتُ أقفُ هنا منذ صباح العمر، أجوعُ ببطونكم، وأعطشُ بحناجركم، وأبكي بعيونكم، وأمشي فوق الرّمضاء حافيًا بأقدامكم، وعاريًا في البرد بأجسادكم من أجل عزائكم، عسى أن يكونَ لكم قبسُ بسمة، وومضةُ أملٍ حيث أنتم في الظُّلمة العمياء!

أجيبي، أيَّتها الدُّنيا، وتلفَّتْ أيُّها السَّلامُ الَّذي يطوفُ في الأرض مَطرودًا من كلِّ بيت! لماذا، حيثما سرتُ في الزّحام بين أبنائكِ، لا أصدِمُ كتفي إلاَّ بكذَّابٍ قرين كذَّاب، ودجَّالٍ خِدْن دجَّال، ومُراوغٍ رفيق مُراوغ،

وقد لبسَ ثوبَ العنكبوت، وراحَ يختفي وراء شبكته ليصطادَ الأبرياء من بَني البَشَر! لقد شاهدتُ للكذب في ترحالي الطَّويل في قلوب النَّاس، وبأمِّ عيني، كهوفًا، وأجحارًا، وأوجرةً، ومغاورَ كثيرةً، حفرَها أبناؤه في بطن الأرض من صدورهم! هذا يخبِّئُ فيها عنصريَّتَه، أخبثَ أمراضه وأمراض النَّاس طُرًّا، وذاك يُواري طمعَه، وبخلَه، ومكرَه، وجُبنَه، وأولئك يخفون سرقتَهم، وبغضاءَهم، حتَّى غدا الكذبُ لباسَ ألسنتهم، به يسترون عن أعين النَّاس ما في الآبار تحت أضلعهم! ترى الشَّوكة بينهم تلبسُ حلَّةَ الزَّهرة، وتتلفَّعُ العقربُ بطيلسان الفراشة، ويتدثَّرُ الذئبُ بثوب الحَمَل، وتختالُ النار بقامتها الحمراء في الغابات، وهي ترتدي قميص أرجوانٍ من ترشاش الرَّذاذ عند بزوغ الشَّمس! لذا، ومِن أجل أنْ أحميَ نفسي من غبار الألسنة، اعتدتُ دائمًا أنْ أقولَ لكلِّ مَن جاء إليَّ حيث أقيمُ في الدَّير النَّائي في الصَّحراء: تَعَرَّ أوَّلاً واخرجِ الإنسانَ المختبئَ في أعماقك قبل أنْ أخاطبَك، وقُمِ اجمَعِ الحطبَ واحرقْه أمام عينيَّ مع تقاليدك! لأنَّني أخذتُ على نفسي عهدًا ألاَّ أخاطبَ في حياتي إلاَّ العُراةَ في هذا العالَم..! ويا شَقْوَتي، حين رأيتُهم في الحال يَنْفَضُّون مِن حولي، وهم يُجَمجِمون بحَنَقٍ خارج الباب: كيف لنا أن نكشفَ عن عوراتنا للنَّاس! وكيف يرجو أن نطرحَ عنَّا أمراضَنا، وفيها عافيتُنا، وهي معاشُنا، وقوتُ أولادنا، ومنها نرتزق! فخرج زلزال من أعماقي ينادي: ليتَ آدم وحوَّاء قد بَقِيا عاريَيْن منذ ذلك اليوم الَّذي لبسا فيه ورقَ التِّين، فما تنوَّعتِ الأوراق، وما تعدَّدتِ الملابسُ في هذا العالَم!

لقد أطلتُ النَّظرَ في وجه الحياة، أمسِ، وهي شاخصةٌ أمامي تميسُ بقامتها الهيفاء، فلم أرَ شرًّا من الزُّور والكذب تدميرًا للمحبَّة بين أبنائها، واصطيادًا للودعاء والمساكين منهم! فصرختُ للوقت في البرِّيَّة: أيُّها الدَّجَّـــالون الَّذين تنفخـــون بأفواهكم نارًا وكبريتًا، فتتبعثُ النَّارُ منها

وهَّاجةً تصلي مروج الورد، وروابي الزَّهر، وتُنفِّرُ الحمائمَ الهُتَّفَ عن دوحها في الخمائل، وتحملون معكم النّواحَ والعذابَ لهذا العالَم، ألقُوا الأقنعةَ عن رؤوسكم، كي يرى النَّاسُ القرونَ الجاسية، والأنيابَ الكالحة! تعَرَّوا من ملابسكم، كي يرى النَّاسُ تحتها الحيَّاتِ الرُّقْط! اخلعوا نعالَكم ليرى البشر مخالبَكم، وأظفاركم، وبراثنَكم! سحقًا لكم! لا تبالون وأنتم تنظرون العالَمَ يجري في سفينةٍ تحترق، وتوشكُ أن تُلقيَ بأبنائها في عباب الدأماء الصَّاخب!

مَن قالَ إنَّ المَرءَ يحتاجُ إلى أنيابٍ كالحة، وينبغي أن يكونَ فمُه ملطَّخًا بالدِّماء، حتَّى يتسمَّى وحشًا مفترسًا؟! فقد يكونُ المَرءُ وحشًا ضاريًا حين تدفعُه أطماعُه إلى افتراس حقوق النَّاس، والسَّطوِ على أرزاقهم، وهو، في أثناء ذلك، لا يُقيمُ في غابة، بل في أجمل المنازل والقصور!

لا يحتاجُ المَرءُ أن يُحْسِنَ النَّقيقَ في اللَّيل، والنَّزوَ بين الوحول، ويقيمَ على الضِّفاف تحت الطَّحالِب، حتَّى يتسمَّى ضفدعًا! فقد يكونُ المَرءُ ضفدعًا نقَّاقًا في الحياة حين لا تنفعُ ثرثرتُه أحدًا، ولا يقضي حياتَه إلاَّ مِهذارًا في عصبةٍ من الصَّراصير واليرابيع في اللَّيل الدَّامِس!

لا يحتاجُ المَرءُ أنْ نرى فوق فَودَيه قرونًا، وفي رجلَيه أظلافًا كي نسمِّيَه نيزبًا، أو ثورًا ذيَّالاً! إنَّ من النَّاس نطَّاحًا بطمعه، وقسوةِ قلبه، ويُتلفُ آمالَ النَّاس المزروعةَ في الحقول الفسيحة، وهو لا يُقيم على الحشائش في الحظائر، بل على الطَّنافس والفراش الوثير!

لا يحتاجُ المَرءُ كي يكونَ أفعوانًا صلاًّ، أن يُنَضْنِضَ بلسانه، ويستخفيَ بين الأشواك والأعشاب، وينسابَ على بطنه فوق التُّراب! إنَّ الَّذي يغتابُ النَّاسَ ويلدغُ بلسانه شرفَهم، ويرمي الإبرَ في قلوبهم، أفعوانٌ صلٌّ هو، وإن بدا لأعين النَّاس بأجمل الحلل وأنفس الثِّياب!

نامي، مَيُّ، مُمَجَّدَةً في الأخدار السَّماويَّة، ولا تجزَعي؛ ورَفِّهي عن قلمك المُضنى ورَوِّحيه! يا نبعةَ الأدب، ونفحةَ الحقب، إنَّ قبرَك الشَّذيَّ قارورةُ طيبٍ تحت الثَّرى، أرى نيسانَ كلَّ عامٍ يقفُ على بابه ليأخذَ منه عطرًا لروابيه، ومُجاجًا لأزاهيره..! لستِ وحدَكِ في هذا العالَم مَن كذبَ النَّاسُ عليه، وخذلوه، وأنكروه، وعيّروه ولم يحفَظوا له جميلاً، بل جازَوه عن معروفه شرًّا..! حَسْبُكِ، في أسبوع الآلام، أسوةً بالسَّيِّد المسيح الَّذي يصلبُه النَّاسُ كلَّ يومٍ منذ ألفَي عام، وهو القائلُ دائمًا: "يا أبتاه، اغفِرْ لَهُم لأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ مَاذا يَفْعَلُونَ".

سِرتُ حاملاً سريري!

أسكتي، أيَّتها الحياة، ولا تتكلَّمي بغَير ما قلتُه لك مرَّة. إيَّاكِ أن تسيري بي يومًا إلى حيث لا ترغبُ نفسي. لقد قبلتُ راضيًا أن أقضيَ عمري بفرحٍ وحبورٍ معكِ، بين قصورك وحدائقك، وعلى ضفاف ينابيعك وأنهارك، وتحت نجومك وكواكبك، وفي بحارك وصحاريك، وأمام عواصفك وأنسامك، ورفيقًا دائمًا لخريفكِ وربيعكِ، أمشي مع شمسك، وأعودُ في الغد إليك مع فجرك. ولكنَّني أبَيْتُ أن تعيشي معي يومًا واحدًا في المنزل الجميل بغَير ملبسٍ وكساء، وعاريةً أمامي من كلِّ نُبل، وقداسة، تحت بصر العَلِيِّ القدُّوسِ الجالسِ على العرش إلى الأزل!

في لسانك أرى بلبلاً وغرابًا، ومن فمك ينطلقُ للدُّنيا في آنٍ واحدٍ غناءٌ ونعيق. لكنِّي عوَّدتُ نفسي ألاَّ أسمعَ منك غيرَ ترنيم الهزار الواقف على شفتَيك، وهو يغنِّي كلَّ صباحٍ للرَّوابي والخمائل. أصافحُ يُمناك كلَّ فجر، وآخذُ منك ما تحملين بها للدُّنيا من فرح؛ بل أردُّ كلَّ يأسٍ وقفَ خارجًا يقرعُ الأبواب، وأضربُك بقوَّةٍ على يُسراك لُتلقِيَ منها على الأرض ما تحملين معك للملإِ من ذلك الشُّؤم والحزن العاصف!

أذكرُ يومَ أنزلَتني الطُّفولةُ عن سريري، ورحتُ أسيرُ مع السَّائرين في دروبك الطَّويلة بين الجبال، والأودية، والجداول والسَّواقي، جاءت إليَّ أيَّامك ووضعَتْ في فمي لسانًا يكذب، فقطعْتُه للوقت بسَيفي؛ وزرعَتْ تحت أضلعي قلبًا يُضمرُ البغضاء، فعاجَلتُ ونزعتُه بيدي؛ وأضاءَتْ بين جفنيَّ عينًا لا ترى غير الظَّلام في هذا العالم، فأسرَعتُ إليها واقتلعتُها بفأسي؛ وفضَّلتُ أن أحيا عمري كلَّه وحيدًا بغَير لسانٍ يكذب، وقلبٍ يبغض، وعينٍ لا تُبصرُ النُّورَ ممَّا أعطَتْنيهِ الأيَّامُ بين غيوم ظلمائها في ذلك العهد الكئيب. ذلك ما فعلتُه، أيَّتها الحسناء الفاتنة، كَيْــلا

أسقطَ في الهاوية العميقة مع الَّذين رأيتُ ألسنتَهم وقلوبَهم وأعينَهم ترميهم في أعماقها عند أوَّل الطَّريق إلى عهد الشَّباب..!

.. وحين رأيتُ السَّائرين يجدُّون في سَيرهم كي يملأوا بطونَهم من طعام الدُّنيا قبل غروب الشَّمس، ونزول المَغيب الَّذي يَتلوه فجر، سمعتُ هاتفًا يقول: أيُّها الضَّالُّون في الصَّحراء، والضَّائعون في البرِّيَّة، إنَّكم، إنْ شبعتم اليومَ من هذا الطَّعام الأرضيِّ الَّذي عليه تتهافتون، لن تجدوا يومًا رغيفًا واحدًا يسدُّ رمقَكم بين جموع الجِياع في هذا العالم؛ وإنَّكم، إنْ لم تروُّوا أنفسَكم تَالسَّاعةَ من ذلك الماء الحيّ، لسوف تبقون عطاشًا في الأرض إلى الأبد، ولن تجدوا هناك مَن يُطفيءُ لكم ظمأَكم يومًا؛ ولو أنَّكم جلَبتم إلى بطونكم كلَّ أنهار الدُّنيا، وبحار العالم تتلاطمُ أمواجُها تحت أضلعكم عند صخور الشَّواطىء!

.. ويومَ أتتني أيَّامُكِ أيّتها الحياة عند الصَّباح، نظرتُ إليها، فوجدتُ أيديَها مغلولةً بالسَّلاسل، وأرجلَها موثقةً بالحديد، وتعجز أن تمشيَ معي إلى الأمل المُشتَهى، والفرح المحلَّى بقطر المحبَّة، فتركتُها وحدَها مكبَّلَةً بالقيود في ذلك المَوضِع النائي، ثمَّ انطلقتُ إلى أوَّل الموكب بين السَّائرين، لا ألتفتُ إلى استغاثتها، ولا أسمعُ نداءَها على الرَّغم من أنَّني رأيتُها تلوِّحُ بيدَيها من بعيد، وتتوسَّلُ باكيةً كي أبقى معها هناك لأموتَ معها خنْقًا بيَد اليأس والأسى المُميت!

وإنِّي لأذكرُ يومَ أرادت أيَّامُكِ أن تضعَني في مَوضِعٍ لا أسمعُ في أوديته غيرَ نقيق الضّفدع، وطنين اليعسوب، وألتفتُ فلا أرى حولي غيرَ الشَّوك والقتاد، أذكرأنَّني ناديتُ أجنحتي، فأطاعتني على عَجَل، وحلَّقَت بي عاليًا في الأثير الرَّحب حيث لا أرى تحتي من هناك غيرَ الرَّوابي العاطرة، والحدائق الزَّاهرة، لأحطَّ في الرَّوضة الفيحاء الَّتي أسقي السَّواقي فيها من كؤوس أناشيدي وأغانيَّ، وأبني عندَها لي وكــرًا فوق

غصنٍ من الغصون الَّتي تعرفُ قدر الأطيار والعنادل، فوق الرِّياض والجداول..!

وحين فتحتُ كلَّ أعيُني فلَم أرَ عندَها غيرَ الظُّلمة، وأصغيتُ بكلِّ آذاني فلَم أسمعْ غيرَ طحنٍ مَلَلتُ سماعَه منذ آلاف السِّنين، أغلقتُ أعيُني وسدَدْتُ آذاني، وأوصدتُ كلَّ الأبواب والنَّوافذ حتَّى لا يدخلَ إليَّ أحدٌ في الدَّير العظيم القائم تحت صدري، لأقيمَ فيه وحدي حتَّى تَنجلي الظُّلمة، ويسكتَ ضوضاءُ الرّحى خارج الدَّير المُغلق على النَّاسك المُتَزهِّد!

أيَّتها الحسناء الفاتنة، لقد طفتُ الدُّنيا كلَّها في يومٍ واحدٍ مَشيًا على قدميَّ، أبحثُ فيها عن السَّعادة، فلَم أجدْ عندَها مثل المحبَّة ينبوعًا زُلالاً للشَّاربين على الضِّفاف؛ وما وجدتُ عملاً من أعمالها يصنعُ الفرحَ الدَّائمَ للنُّفوس مثل الإحسان للمَجروحين الَّذين ضربَتْهم نكباتكِ على قلوبهم؛ أولئك، وَدِدْتُ لو أنَّ ذراعيَّ تلتفَّان حول العالم كلِّه كي أضمَّه إلى صدري، فأعصر الدَّمع من أعيُنهم، والعذابَ من قلوبهم، ليجلسوا بين النَّاس في فرحكِ الدَّائم!

ما لي ولكِ أيَّتها الحسناء الفاتنة؟! إنِّي لأرى لكِ من هنا وجهًا من نورٍ وضَّاء، ومن هناك ظهرًا تخفينه عن النَّاس من ظلامِ حالك؛ وكَيْلا تُديري لي ظهرَك يومًا فأرى فيه قبحَكِ وشناعتَكِ، وحتَّى لا تُطفِئي منه بظُلمتك كلَّ شُهُبي ومصابيحي، وتملإِي بالأحزان خوابيَّ وجِراري، سرتُ على عَجَلٍ حاملاً سريري، أجري بعد ألفَي عامٍ تلميذًا وراء يسوعَ النَّاصريّ، أتبعُه بين الجموع الغفيرة السَّائرة خلفَه في تخوم الجليل وعبر الأردنّ، أُهلِكُ نفسي عندَه لأربحَها، وأشهدَ الأعاجيب، وأسمعَ من فمه كلَّ صباحٍ تلك الخطبة الغرَّاء عند ذلك الجبل الَّذي تقدَّس ترابُه بالمعجزات والأعمال الخالدة!

يومَ تغدو شيخًا!

يومَ تغدو شيخًا، اجعَلْ حياتَك فرحًا دائمًا، وسرورًا متواصلاً، وليَكُنْ كلُّ يومٍ من أيَّامك عرسًا بهيجًا، تُلقي فيه المرحَ والأنسَ بين أبناء أسرتك وأولادك، وأحفادك. لا تَنسَ أنَّ بسمتَك وحدَها هي الَّتي تنوِّرُ قلوبَهم، وتروِّحُ نفوسَهم، لأنَّك الإنسانُ الأحبُّ عندَهم بين سائر البشر. وإنَّ الحياةَ هبةٌ منحَنَا الله كي نستمتعَ بها، فلا تظنَّنَّ أنَّ عمرَك قد ولَّى، وعيشَك قد انقضى، وأنَّه ليس لك مطمعٌ فيها بعدُ؛ واعلَمْ أنَّ متعةَ الحياة لا تُعَدُّ بطولها، بل بقدر ما نُحسنُ الاستِمتاعَ كلَّ ساعةٍ بجمالها قبل انقضائها. وليس هناك أبلغ من دقَّات السَّاعة تذكِّرك دائمًا بقِصَرها، وموعد زوالها، وتحثُّك على أن تلتذَّها قبل فوات الأوان. فلا تتأفَّفْ يومًا، ولا تَتَبَرَّمْ، ولا تتسخَّطْ خشيةَ دنوِّ أَجَلك، فتكون عندئذٍ عبئًا ثقيلاً على أبنائك، وأحفادك، وأهل بيتك كما يفعلُ بعضُهم. واعلَمْ أنَّ أكثرَ ما يتذكَّرُه النَّاسُ فيك هو أقرب عهد لك معهم، فاجعَل هذا العهد ودًّا صافيًا، وحبًّا خالصًا، ودليلاً على سعَة صدرك، وحسن تفاؤلك، واستودِع عندهم آخرَ ما يدَّخرونه منك في ذاكرتهم: سيرتك العاطرة ووجهك البَسَّام!

يومَ تغدو شيخًا، كُنْ شبابًا نضيرًا، وإن ولَّى الشَّبابُ ومضى، وإن وَهَنتْ قواك وفتَرتْ، وغدوتَ بين النَّاس تتوكَّأ على عصًا! فاعلَمْ أنَّ الشَّبابَ يكونُ في الرُّوح دائمًا أكثرَ منه في الأجساد، وفي الأمل أعظمَ منه في صلابة الأبدان، وفي العَزم أحسنَ منه في قوَّة الأجسام. رُبَّ شابٍّ في عجوز، وعجوزٍ في شابٍّ وَثَّابِ العَزم والأمل. فكُنْ هذا، ولا تكُنْ ذاك، واستمتِعْ بكلِّ ساعةٍ من حياتك، لأنَّها فرصةٌ لن تعود!

يومَ تغدو شيخًا، اعمَلْ من أجل السَّلام والمحبَّة بين النَّاس، وبشِّرْ بالقِيَم النَّبيلة حيثما تكون، وأخــرِجْ من خزانـــة تجاربك سلاسلَ الحكمة،

وقلائدَ المَوعظة، وأَعطِ المجتمعَ حولك هذا النَّوعَ المفقودَ من نفائس الماس وسبائك الذَّهب! إنَّ كلمةً طيِّبةً واحدةً تصدرُ عنك في هذا العهد خَيرٌ من كتابٍ أملَيته على النَّاس أيَّامَ الشَّباب، لأنَّك، بحكم سنِّك، ووقارك، أنت مسموعٌ من أبنائك، وموثوقٌ بك بين صغارك، وكلمتُك تكونُ ناموسًا مقدَّسًا للصِّغار، وأمثولةً للكبار، ويتَّخذونها قدوةً لهم، وزادًا في طريق الحياة!

يومَ تغدو شيخًا، اقبَلْ نفسَكَ كما أنت، لأنَّك لا تستطيعُ أن تُصلحَ ما قد أفسدَه الدَّهرُ فيك؛ وإيَّاكَ إيَّاكَ أن تحسبَ نفسَك قريبَ العهد من الموت، فتخاف وترتعب، وتيْئس وتقنط. عِشْ دائمًا متفائلاً منيعًا، وعَصيًّا على اليأس، كما لو أنَّك في أيَّام الشَّباب، وأنَّك أمسِ وُلدْتَ؛ مَن يدري، فقد يكونُ لك من الأعوام الآتية أكثر ممَّا لطفلٍ رضيع، ولفتًى غضّ، أوَلَيستْ لك موعظةٌ في الحياة لدى أناسٍ عاشوا مِائة عام، وقد سبقَهم إلى القبر أناسٌ أتَوا إلى الحياة بعدَهم بكثير؟!

يومَ تغدو شيخًا، كُنْ أيكةً وارفةَ الظِّلال، ممتدَّةَ الأغصان، تحتضنُ في فَيئها كلَّ الطُّيور والعنادل من الأبناء والأحفاد الَّذين يصدحون في أفنانها، ويغرِّدون بين غصونها، ويمرحون في أحضانها؛ واهنَأْ بهذه النِّعمة الَّتي مَنَّ الله بها عليك، إذ مَدَّ من أجَلِك، وجعلَ لك عمرًا مديدًا، تحيا فيه لترى ذُرِّيَّتك حولَك تُجلُّك، وتحنو عليك، وتغمرُك بالمحبَّة كلَّ الوقت، وتطلب رضاك، وتخطبُ ودَّك؛ وقد فرَّحَك الله بقرانهم، وانطلاقهم من وكْرك، وأسعدَك بسلالتك فيهم. بُشراك! أنت في أسرتك ملكٌ عظيمٌ في مملكته، صغيرُ الأسرة يُطيعُك، وكبيرُها، وكذلك يمجِّدُك ويوقِّرُك ويحميك ويلتمسُ سعادتَك. ولأجل أن تَعِيَ ما أسبغَ الله عليك من نعمة، تلفَّتْ إلى الوراء، وتذكَّرْ مِنْ أترابك، ورُفقاء صباك، مَن

رَحَلوا باكرًا، ولم يُمْهِلْهم الموتُ كي يسعدوا بما أنتَ تسعد، وقد حرمَهم القدرُ أن يرَوا ما أنت ترى!

يومَ تغدو شيخًا، إيَّاك أن تعتزلَ النَّاسَ، إنَّ العزلةَ صاحبٌ ماكِرٌ يقتلُ رفيقَه خنقًا. رَفِّهْ عليك، وُقمِ اطرَحْ همومَك، وسِرْ في الطَّبيعة إن كانت قواك تسعفُك، ومَتِّعْ ناظرَيك بجمالها ورونقها، وسمعَك بحديثها وهمسها، إنَّ الطَّبيعةَ أمهَرُ طبيبٍ للأجسام والنُّفوس، تعطيك أحسنَ الجرعات في نشاط الجسد، وأفضلَ الدَّواء في ترويح النَّفس، وتنظيفِ الذّهن، وتنقيةِ الفكر من الهواجس والهموم!

تبارَكتَ، أيُّها الشَّيخ، وشملَك الله برعايته دائمًا! لقد تعبتَ وتألَّمتَ، وغرستَ وأكلتَ، وزرعتَ وحصدتَ، وساهمتَ في جمال الكون، وبناء الحياة؛ وكنتَ، وما زلتَ، شجرةً باسقةً تدلَّت ثمراتُها اليانعات، فأكلَ النَّاسُ منها أعوامًا طوالا. مَدَّ الله من أجَلِك، وجعلَك ترفلُ في ثياب الصِّحَّة والسَّعادة دائمًا. وها أنذا، اليومَ، جئتُ أحني هامتي أمامك، إجلالاً لِمَقامك السَّامي عندي، وتَوقيرًا لِمَن عانى وضحَّى من أجل حياة الآتين من بعده في هذا العالم!

هاتِ اسقِني، يا قَلَم!

أُكتُبْ حين يكونُ قلمُك في يدك غصنًا من شجرة نار، يتساقطُ الجَمرُ من فمه على الورق، ويلقي الجذاذات مشتعلةً دائمًا ولا تنطفئ. ذلك كي يتحلَّقَ النَّاسُ حول موقدك في هذا العالم العاصف، حيث جبالُ الثُّلوج وقِمَمُ الجليد!

أُكتُبْ حين يناديك القَلَم، ولا تنادِ القَلَمَ حين تكتب، فتكون كلماتُك حصًى ورمالاً. لقد سمعت أولئك الَّذين قصدوا ذلك الطَّعامَ والشَّرابَ يقولون يومًا: عدنا نتضوَّرُ جوعًا وعطشًا، لأنَّنا لم نجدْ هناك سوى الحصى والرِّمالِ في أكثر الكتب!

أُكتُبْ حين تكونُ أوراقُك قد تناثرت عليك من السَّماء على هَيئة حمامة، فتحمِّلهنَّ خبزًا زمنَ المجاعة للَّذين ما زالوا ينتظرون الزَّاد، ولم يذوقوا طعمَ الخبز في هذا العالم!

أُكتبْ، ولا تدَعْ قلمك يجري إلاَّ وراءَك، ولا تسِرْ به يومًا إلاّ حيث يبعثُ الربيع إليك من أزاهيره الفِيح شذًا وعبيرًا، كي يتشمَّمَ النَّاسُ بين سطورك ذلك الحرف الأريج!

أُكتُبْ حين تكونُ أنت نفسُك قلمًا صاخبًا بين أصابعك، ويلقي كوثرَه في كلِّ ناحيةٍ على الضِّفاف، فتروي منك كلَّ صحراء ماحِلَة من بَني البَشَر، تراها تمشي وراءك على قدمَين في الشَّوارع، تَعدو وراءك وتناديك بأعلى صوتها: اروِ الظَّمأ، هاتِ اسقِني يا قَلَمُ!

أُكتُبْ، ولا تكُنْ دوريًّا ثرثارًا لا يدَعُ نافذةً إلاَّ يقفُ عندها. كُنْ هزارًا من ذهب، يترنَّمُ على الغصون وقورًا، لا يصدحُ إلاَّ بما يحفظُ له قدْرَه وقيمةَ شدوه بين الأطيار؛ واعلَمْ أنَّ الدُّنيا ملَّت كثرةَ الزَّرازير في الأثير، وعافَت أسرابَ الدُّوريِّ فوق النَّوافذ!

أُكتُبْ، بعدَ أن تنزلَ بقلمك إلى القوارير والآبار تحت صدرك، ثمَّ اسْقِهِ هناك من تلك الجرار الدَّفينة، إلى أن تعودَ به يحملُ للنَّاس حروفًا من نبيذ، وتعابيرَ من ماس، وكلماتٍ منقَّطَةً بالشَّهد! أوَما علِمتَ أنَّ في العالم أقلامًا وُلِدَت مَيْتةً في أيدي أصحابها، وقد أنتَتَتْ، وأنَّ في الزّكام عافيةً للسَّائرين بين الرّمم؟!

أُكتُبْ ساعةَ تكونُ كلماتُك للنَّاس مُعَطَّرَةً بالمحبَّة والبسمة، ومُضَمَّخَةً بالأمل والسَّلام، فيملأ عبَقُها الأثيرَ، فتسرع بترياقها إلى هذا العالم الَّذي يزبدُ ويتلوَّى وجعًا، وتُخرج منه الصَّرْع وقد رماه الرُّوح النَّجِسُ في النَّار الَّتي لا تنطفئ. والويلُ في هذا العالم لمَن يكتبُ بأفعًى في يده، ويتنزَّى السُّمُّ من حروفه لا الرَّحيقُ ولا النّفحُ الزَّكيّ. إنَّ قلمًا سامًّا واحدًا يكفي أن يقتلَ أمَّةً بأسرها في هذه المَسكونة!

أُكتُبْ رياحًا عاصفة تهبُّ من قلمك، وتدفعُ بقرونها كلَّ جدارٍ يفصلُ بين النَّاس، وتُطلقُ كلماتِك قنابلَ تهدمُ الأسوارَ بين بَني البَشَر!

أُكتُبْ بعد أن تجعلَ تعابيرَك حريرًا مُفوَّفًا يكسو النَّاسَ نشوَةً ومتعة، وحَذارِ أن تحملَ الشَّوكَ والغضا إليهم يومًا. كفى قلوبَ النَّاس شوكًا، وعيونَهم غضًّا في دنيا الأسى الدَّائم!

أُكتُبْ صوتًا هادرًا يركبُ صهوةَ الرِّياح ليصلَ عزاءً إلى المأسورين في السُّجون، والمشرَّدين في المخيَّمات، والسَّاكنين في الزّنزانات، والمتروكين في العراء، والجائعين المحتاجين إلى الطَّعامَين طعام الأرض وطعام السماء، والمطرودين الَّذين خرجوا يحملون حريقًا في صدورهم منذ زمنٍ بعيدٍ ولمَّا ينطفئ!

أُكتُبْ حين تحملُ من حروفك قلائدَ للأمَّهات، وعقودًا للأخوات، ولآلئَ للفتيات، ولا تَنسَ يومًا أنَّ المرأةَ ريحانةُ الدُّنيا، وأقحوانتُها الشَّذيَّة،

وليس للعالم أن يتنشَّقَ الطِّيبَ إلاَّ من أردانها، ودونها يستحيلُ ربيعُ الحياة خريفًا يائسًا فوق الرَّوابي والتِّلال!

أُكتُبْ بعدَ أن تجعلَ قلمَك في يدك غصنًا فينانًا لا عودًا عُريانًا يابسًا، فتُلقي من ثمره للمرضى، والعُمي، والعُرج دواءً يمنعُ العنصريَّةَ أن تدخلَ من بوَّاباتها الكثيرة إلى العالم. إنَّ العنصريَّةَ في هذا العالم ثورٌ هائجٌ يطلقُه بعضُ النَّاس من الحظائر في صدورهم كي يتلفَ جنَّةَ الحياة الَّتي أرادَها الله لأبنائه على الأرض!

أُكتُبْ وأنت تحملُ قلمَك مصباحًا وضَّاءً يبعثُ النُّورَ في كلِّ ناحية، ويبدِّدُ الظُّلمةَ للنَّاس في عقولهم. إنَّ أشدَّ الدَّياميس ظلامًا في الأرض ليلٌ أعمى يقيمُ في رؤوس النَّاس وجماجمهم، حيث من هناك تسقطُ العتمةُ ويأتي الخرابُ إلى هذا العالم!

أُكتُبْ وأنت تعلمُ أنَّ للأقلام قيامةً للأموات كلَّ قرنٍ في ملكوت الفكر والرُّوح، تفصلُ بين القمح والزّوان؛ حيث هناك لا يخلصُ إلاَّ الَّذين أُعْطُوا أقلامَهم من فوقُ، وانحدرَت مواهبُهم من العَلاء؛ فاحترِسْ قبل ذلك اليوم الرَّهيب كَيْلا تُلقَى خزانةُ كتبك في النَّار الأبديَّة، هناك حيث البكاءُ وصريرُ الأسنان. و"مَن كان له أذنان للسَّمْع فليَسمَعْ".

أيُّها الآباء، أين أنتم؟!

أيُّها الآباء، أين أنتم؟! ودِدْتُ أن أخاطبَكم في الخطب الجَلَل، بيدَ أنَّي وجدتُ الكلماتِ حجارةً في فمي، والألفاظَ إبرًا على لساني، والتَّعابيرَ أشواكًا فوق شفتَيّ. أوَتجهلون أين أبناؤكم ؟! أم انَّكم تتجاهلون؟! إنَّ من أبنائكم جماعةً ضَلَّ أفرادُها في الصَّحراء، وقد دفنتَهم الرِّمالُ تحت كثبانها، وغابوا في التِّيه كَيْلا يعودوا إليكم. إنَّ من أبنائكم نفرًا فتحتم أنتم أمامهم أبوابَ الغابة، فدخلوها على رجاء أن يقطفوا أزهارًا، ويستنشقوا عطرًا، ويمتِّعوا أنفسَهم بأناشيد السَّواقي، لكنَّ الوحوشَ الآبدةَ تناولتهم بنيوبها طعامًا لها عند الأبواب. إنَّ من أبنائكم جماعةً فتحَ اللَّيلُ أبوابَه أمامهم فدخلوا، حتَّى فتنَتهم أنوارُ الظُّلمة بسَنا شعاعها، فانطفأت أعينُهم من وهج النُّور الأسود، وعشيَ بصرُها عن رؤية الدَّرب، حتَّى سقطوا في الظُّلمة البيضاء، وقد أغلقتِ الهاويةُ فاها على أجسادهم. إذهبوا فتشّوا عنهم تلقَوهم يرتادون الحانات والمواخير من دون معاهد العِلم، ويعتامون الدَّساكر، والخمَّارات، من دون أندية المدارس. أنقذوهم من جَهالتهم، وخلِّصوهم من أصدقاء السُّوء الَّذين نزعوا النُّورَ من أعيُنهم فلا يرون؛ وأخرَجوا عقولَهم من رؤوسهم حتَّى إنَّهم لا يعرفون ماذا يفعلون. إزيَّنوا بالقرط في آذانهم، والحَلَق في أنوفهم، إنَّهم جيلٌ ضالٌّ يسخرُ بالقِيَم والفضائل، يطلبون أن يبلغوا أمانيّهم بالاحتيال والطُّرق غير المَشروعة من دون أن يبذلوا جهدًا في سبيل ذلك. يطأُون على ماضيكم، ويحقِّرون أمجادَكم؛ يشتمون عظماءَكم، ويكذِّبون تاريخَكم يومَ سمعتُهم يقولون لتاريخكم وهو واجِمٌ حزين: إنَّك تاريخٌ كذَّابٌ وثرثار، لا نصدِّقُ قصصًا قصَصْتَها علينا عن أمجاد أمَّتنا؛ وأنتِ أيَّتها اللُّغةُ العربيَّةُ، طعمُ ألفاظك مُــرّ، إنَّك صابٌ وعلقَــم، كلماتُك حجارةٌ ثقيلةٌ كسَّرَت أسنانَنا، وأشواكٌ

تُدمي ألسنتنا. إنَّك لغةٌ لا تصلحين إلاَّ لعهودٍ من الجهالة ولَّت. قضيتِ عمرَك حافيةً من كلِّ مدنيَّة، وعشتِ عاريةً من كلِّ حضارة. لقد شاهدْنا المدنيَّة الجديدة تحملُ كلَّ كلماتك، وتلقي بها بين القمامة، وأحرى بكِ أن تعودي للعيش حيثُ وُلدتِ في الخيام، والبسابسِ والعقنقل، مع الإبل، وسعاد، وأسماء، وتبكين فوق الأطلال، وتمرحين مع الجآذر والآرام! كما سمعتهم يقولون للوطن والدَّمعُ ينهلُّ من وجنتَيه: إنَّك ثقيلٌ علينا، أيُّها الوطنُ البَغيض، تحمِّلُنا أوزارًا لا طاقةَ لنا بها. ثراك المقدَّس، وما ثراك المقدَّس؟! إنَّه رمادٌ وكبريتٌ في عيوننا، وحجارتُك جمارٌ تتلظَّى تحت أرجلنا، وأزهارُك سكاكين، جذورُها في الارض، ورؤوسُها تشقُّ أقدامَنا. إنَّ بلادَ الوَقوَاق خيرٌ منك، ولا طيَّبَ الله لنا عيشًا في كنفك؛ لقد حُمَّ الرَّحيل، هلمّوا نهاجر ونرحل..!

أيُّها الآباء الاحبَّاء، إنَّ أبناءَكم وجوهُكم عند النَّاس وسفراؤكم، والألسنةُ الَّتي تتكلَّمُ من حناجركم؛ وإنَّ بالملعقة الَّتي أطعمتموهم صغارًا، يطعمون النَّاسَ اليوم كبارًا. والحليب الذي أرضعتموهم أطفالاً، يسقون الوطنَ منه رجالاً. أبناؤكم تلاميذُكم، وأنتم المعلِّمون. أعمالُكم قبل ألسنتكم عِبَرٌ لهم ودروس. إنَّهم أرضُكم، وأنتم الفلاَّحون؛ ويومَ تخرسُ الرِّياح، وتنضبُ الأمطار، يُقبِلُ الرَّبيع إليكم ويُخرِجُ من أرضكم نبتَ بذاركم، فاجتهِدوا أن يكونَ النَّبتُ اقحوانًا ونسرينًا، لا شوكًا وقتادًا. تيقَّنوا أنَّ الأبناءَ أعظمُ نِعَم الله على الآباء في الأرض. إنَّهم، لو علِمتم، خيرٌ من القصور البواذخ، وأعظمُ من خزائن الذَّهب. إنَّهم بهجتُكم وتعاستُكم في آنٍ واحد؛ فاجتهِدوا أن يكونوا بهجةً وسلامًا لكم، لا تعاسةً وشقاء. وإنَّ أشدَّ الآباء جهلاً في الأرض بينكم، أولئك الَّذين خرجوا يبحثون عن الغنى والثَّروات العظيمة خارجَ منازلهم، ولم يدركوا أنَّ الغنى والثَّرواتِ العظيمةَ هي في منازلهم حيث يُقيمــون. ليس الفضلُ أن نمــلأَ بطونَهم

خبزًا، ونتركَهم جياعًا إلى خبز المعرفة والفضيلة، وليس الفضلُ أن نكسوَ أجسادَهم بأجمل الحلَل، وندعَهم عراةً من الأخلاق، وليس الفضلُ أن نحميَ أجسادَهم من الأمراض، والعِلَل، ونجعلَهم أصحَّاءَ في أبدانهم، وندَعَ نفوسَهم مريضةً بالرَّذائل. الويلُ لأمَّةٍ كبرَت أجسادُ أبنائها، وصغرَت عقولُهم؛ صحَّت جسومُهم، واعتلَّت نفوسُهم بالرَّذائل. إنَّ مِن الآباء قومًا قتلوا أبناءَهم، ودفنوهم من دون أن يسفكوا قطرةَ دمٍ واحدة، وقد ظلَّ قتلاهم أحياءً بينهم ينغِّصون عليهم عيشَهم..! إنَّ مِن الآباء قومًا يُعنَون أن يقلِّموا بساتينَهم، وأغراسَ كرومهم، بالحرث، والسّقي، لكنَّهم لم يعملوا شيئًا من أجل تَقليم الغرس الأعظم في منازلهم، ولم يحرثوه، ولم يسقوه حتَّى تعالى الشَّوكُ فوقه، وجفَّ الغرس من حرِّ الرَّمضاء. إنَّهم يبنون القصور، ويُغالون في زخارف نوافذها، وأبوابها، وشرفاتها، لكنَّهم لا يلتفتون الى البيوت البشريَّة في بيوتهم، ليتركوها مهدَّمَةَ الأركان، قد تداعى بُنيانُها، وتصدَّعت من كلِّ جانب..!

.. أيُّها الآباء الأحبَّاء، إنَّ الأمم الَّتي انتصرت جيوشُها في ميادين القتال، قد أعدَّت هذه الجيوش من أبنائها في التَّدريب على القِيَم الرَّفيعة عقودًا من الزَّمن قبل أن تعدَّها الإعدادَ الحسنَ في معسكرات التَّدريب لمواجهة الأعداء في الحرب العوان. أيُّها الآباء الأحبَّاء. إنَّنا في عهدٍ تُحيطنا أممٌ من العماليق، تسلَّقت فوق أسوارنا، واخترقَت حصونَنا؛ بطونُها جبالٌ لا تشبع، وأفواهُها أوديةٌ لا تمتلىء؛ أيديها نارٌ لا تنطفىء، وأنيابُها أسيافٌ ورماح؛ أقدامُها صخورٌ تدكُّ أجسادَنا، وصدورُها صحارى لا قلوبَ فيها! ومن أين لنا إن كنَّا أقزامًا أن نصدَّ الجبابرةَ العتاة، وإن كنَّا هشيمًا يابسًا أن نردَّ النَّار المتأجِّجة. اذهبوا بهم إلى ينابيع المعرفة، واتركوهم جامِّين على الماء حتَّى يُطفئوا الظَّمأ. إنَّ جيلاً يخرجُ لملاقـــاة الحيـــاة، وليس في الزَّاد عِلمٌ يتقوَّتُ به، وخُلُقٌ يتلمَّظُه، لا تُمكنُه

مواصلةُ السَّير، لأنَّ الموت الَّذي يتضوَّرُ جوعًا سيخرجُ من مغارته بمَن معه من اللُّصوص، وينقضُّ عليه، ويدعو النُّسورَ وبناتِ آوى كي تشاركَه الطَّعامَ في الفريسة الهزيلة!

.. أيُّها الآباء الأحبّاء، إنَّ مِن أبنائكم من أظلمَت قلوبُهم، وخبَتِ الآمالُ في صدورهم؛ وما جنى عليهم ضلالُهم سوى اليأسِ والحزنِ المُميت، يومَ كان اليأسُ أشدَّ انواع السُّمِّ قتلاً، وكان الحزنُ أقبحَ أجناس الموت فتكًا؛ فطلبوا الرَّاحةَ من الحياة بالموت، والنَّجاةَ من اليأس بالانتحار؛ فراحوا يقفزون من أعالي قمم الحياة، ويلقون بأنفسهم في أعماق هاوية الموت، وهم في ميعة الصِّبا ونضارة الشَّباب. اذهبوا بهم إلى الله الَّذي لا يعرفونه؛ إنَّ ملامسةَ يَد الله لقلوبهم تُحيلُهم ملائكة، وتجعلُ قلوبَهم تبرأُ من كلِّ العِلَل والأوصاب، وتملأُ أرواحَهم عزمًا وبِشرًا وبشاشةً وأملاً وقوَّةً ومحبَّةً للحياة والنَّاس..! لقد ضلُّوا، فنحلَت نفوسُهم، وهزلَت ثقافتُهم، لأنَّهم انقطعوا عن مَلِك الملوك في الأرض. إنَّ اتِّصالَهم بالقوَّة السَّرمديَّة يمنحُهم الدِّرعَ الَّتي تردُّ عنهم البردَ في شتاء الزَّمن، وتدفعُ عنهم الحرَّ في صحراء الشَّدائد.! إنَّ الَّذين ينقطعون عن القوَّة السَّرمديَّة يشبهون ورقةَ خريفٍ سقطت من أيكة ظليلة، لتقطِّعَها مخالبُ الزَّوبعة أمام أعيُن الغصون.! واعلَموا، أيُّها الآباء الأحبَّاء، أنَّ الشَّبابَ حصونُ الأمم وأسوارُ الوطن؛ فاحفظوا حصونَكم وأسوارَكم بالإيمان والتَّهذيب والعِلم كَيْلا تستفيقوا يومًا وتروها حطامًا وركامًا.

يحيون أمواتًا

لا تتعجَّبوا، أيُّها الأخوة، أن تجدوا أناسًا بينكم قد دُفنوا قبلَ موتهم بزمنٍ طويل، وموتى ما زالوا يحيون بينكم، ولن تحينَ ساعةُ دفنهم إلى الأبد! أولئك لن يموتوا يومًا، لقد تهيَّبَهم الموتُ، وتحاماهم، لأنَّ لأعمالهم صدًى مدويًّا ورجعًا هادرًا يتبعُهم ويتردَّدُ وراءهم في أودية الزَّمان، لا يسكت! أمّا أولئك الَّذين يقيمون بينكم ممَّن سدُّوا الطَّريقَ الَّذي يصلُهم بربِّهم، وجعلوا أجسادَهم أوانيَ للشَّياطين، فقد ماتوا موتَهم الأوَّلَ بأرواحهم، ليكونوا بعدئذٍ على موعدٍ مع موتهم الثَّاني بأجسادهم، ومن دون أن يعلموا أنَّ موتَهم الأوَّلَ كان أرذلَ المَوتَين في هذا العالم.! أولئك أبناءُ الهلاك يعيشون بينكم وحوشًا، يكشفون عن أنيابهم، ويفترُّون عن نواجذهم، ويفترسون المساكينَ والأبرياءَ في الأرض!

تبًّا لأولئك المجرمين الَّذين يكدِّرون حياةَ النَّاس، والَّتي من أجلها بعثَ الله رُسُلَه وأنبياءَه ليبشِّروا بالعدل والرَّحمة والسَّلام والمحبَّة بين الأمم، ومن أجلها يقف يسوعُ النَّاصريُّ على منبره إلى الأبد فوق قمَّة الزَّمان، يكرزُ في أجيال الأمم المتعاقبة، ويقول: "ارحَموا مَن في الأرض يرحَمْكم مَن في السَّماء"؛ و"بالكَيل الَّذي تُكيلون به يُكال لكم".

أيُّها النَّاسُ الَّذين خُلقت قلوبُهم حديدًا لا رحمة، وألسنتُهم مناجلَ لا شهدًا، وأيديهم رماحًا لا عطاءً، ونفوسُهم ظلامًا لا محبَّة، اذهَبوا للوقت إلى بركة سلوام من أورشليم الجديدة، وألقوا بأنفسكم في مياهها كي تخرجَ الأرواحُ الشِّرِّيرةُ الَّتي جعلَت أعشاشَها في صدوركم، فتعودوا إلينا أحياء بعدَ أن ألقيتم عنكم الموتى إلى الهاوية العميقة.! إنَّكم بيوتُ الله تمشي على الأرض بأقدامكم، وقد بناها على صورته ليسكنَ في حجراتها قبل أن يُقيمَ في معابدكم؛ طهِّروا واكنسوا بيوتَكم هذه من كلِّ دَنَس،

واطردوا من نوافذها وأبوابها الشَّياطينَ السَّاكنةَ فيكم ليعودَ الله إلى أوطانه في صدوركم بعد هذا الفراق الطَّويل بينكم وبين السَّماء العلويَّة!

إنَّ من بَني البَشَر من هم أحياءٌ بالنُّور ومن هم أمواتٌ بالظَّلام، أولئك رجالُ الله الأبرار وأولئك جندُ الطاغوت الأشرار، وكما يحملُ الرَّبيعُ إلى الدُّنيا أزاهيرَ يتأرَّجُ شذاها، ويتضوَّعُ عبيرُها في كلِّ اتِّجاه، هكذا نلقى بين أزاهير الرَّوابي أشواكًا تنتظرُ بأنيابها فريستَها ساعةَ تلامسُها وتمتِّعُ نفسَها بالدَّم المُهراق. وكما نلقى عندليبًا صدَّاحًا جعلَه الله فوق الغصون قيثارةَ الدُّنيا ووَتَرَ الحياة، ليقولَ للنَّاس عندَ كلِّ صباح: ابتَسموا وافرَحوا وصفّقوا بأجنحتكم معي احتفاءً بحياةٍ لن تعودَ إليكم، هكذا نلقى غرابًا نعَّابًا يقولُ للنَّاس في منازل الخراب: احزَنوا واندبوا معي، لا نفعَ لكم أن تفرحوا، وتعالوا لنُقيمَ مع اللَّيل مأتمًا للحياة وجِنازةً للفرح! وكما نلقى ظبيًا شادنًا يرتعُ مع عانته في ظلِّ أراكةٍ ظليلة، وقد أفعمَته بشاشةُ الفجر ودعابةُ الحشائش، وأطربَته أنغامُ الأغاريد فوق الغصون، ويأوي بعد ذلك إلى كناسه، حيث يواصلُ بين أسرته السَّمَرَ مع أحلامه وأمانيه، ويسترجعُ غرامَه مع أليفٍ من ألاَّفه فوق صخرة تنسَّكتْ بين الأدغال، هكذا نلقى في السَّفح الآخر من سفوح الوادي جيشًا من الذِّئاب، كالِحَة الأنياب، وقد خرجت من أوجِرَتها تبحثُ عن حَمَلٍ وديعٍ تحرثُه بأنيابها وتضرِّجُ مخالبَها بدمه القاني..! فالويلُ للَّذين طاروا بين النَّاس غربانًا لا عنادل، وساروا ذئابًا في ثياب بشر، وأفاعيَ تمشي على أرجل، وتسقي الشَّاربين سُمًّا زعافًا عتَّقَتْه أنيابُها زمنًا طويلاً في كؤوسٍ ملأتها من لُعابها القاتل!

إنْ كنتَ من قانا

من مقالٍ نُشِرَ في أثناء الحرب الأخيرة.

.. حَنانَيْكِ، قانا، وقد عُدتِ إلى العالم ثانيةً تَمتطين الزَّلازل، وتنامين في أحشاء البراكين والحرائق، والموتُ يرفعُك على كفَّيه عاليًا، عروسًا معطَّرةً بالدِّماء وقد أرخَت على جِيدها جدائلَ اللَّهَب.! عُدتِ قانا مقطوعةَ الرَّأس واللِّسان تتكلَّمين، عسى تسمعُك الدُّنيا الصَّمَّاء؛ وما راعَني اليوم غيرُ الموت رأيتُه يُفرغُ كلَّ كأسه في فمك، وتسقيكِ الحربُ جرعاتٍ من دماء أبنائك النَّازحين، لا شمالاً ولا جنوبًا، بل إلى أعماق القبور..! ليت أحدًا، قانا، يَرُدُّ لي بصري، ويعيدُ لي سمعي من جديد. إنَّ مشهدَك قد أطفأ السّراج في عينَيّ، وصراخُك أغلقَ أبوابَ السَّمْع في أذنيّ. تلك عيونُ الشُّعوب وقلوبُهم جاءت من أقاصي الدُّنيا تحومُ كي تسكبَ الدُّموعَ على أطلالك، وتبحثَ عن النِّيام من أطفالك الَّذين غطَّاهم الموتُ تحت فراش التُّراب. حتَّى اللَّيلُ الَّذي كان أوَّلَ مَن نظرَتْ عينُه إلى نوم الرّكام على أطفالك، وخرَّقَ سمعَه صراخُ أولادك تحت الخراب، قضى ليلتَه تحت عباءته حزينًا يذرفُ الدَّمعَ عليك من هَول العطب!

حَنانَيْكِ، قانا، وقد عدتِ للعالم كما كنتِ، أكبرَ مأتمٍ في الأرض، تجتمعُ البشريَّةُ كلُّها من بعيدٍ على بكائه، حتَّى ضاقَ لبنانُ الحبيبُ بالأمم الّتي نزلَت جموعُها عند برِّه من كلِّ ناحية، كي تمشيَ وراء جِنازة كلِّ قريةٍ وضيعةٍ محمولةٍ في النَّعش في هذا اليوم الكئيب!

أيُّها الباكي قربي خلفَ الحدود، وأسمعُك تعولُ وتنتحب. إنْ كنتَ حقًّا مِن قانا، فاعلَمْ أنَّ قلبي من فرط الأسى لِما أصابَكم، قانا أخرى تحت صدري وقد سقطَ عليه الرّكام.. ويَئِنُّ بين أضلعي تحت الحجارة والأنقاض.. ويسيلُ دمُه على التُّراب تحت الجوانح.. ومدفونٌ في الرَّدم تحت الثِّياب..!

تَجَلَّدي، يا أُخَيَّةُ، ولا تجزَعي..! لستِ وحدَكِ مَن غالَه الظُّلمُ في هذا العالم. إنَّ في كلِّ مَوضِعٍ في الأرض قانا هنا مثلك، وقانا هناك، تحملُ أطفالَها المذبوحين بوعاءٍ على ظهرها، وتسيرُ بهم كي تخزيَ المُستَبِدِّين في هذا العالم. وإنَّ من نعمة الموت عليكِ من دون رفيقاتك في الأرض، أنَّ في الدُّنيا أكثر من قانا واحدةٍ غيرك، لكنْ لم يسمَعْ أحدٌ بقصَّة خرابهنَّ مثلك غيرُ القبور تحت التُّراب!

حَنانَيْكِ، قانا، هوذا التَّاريخُ ما زلتُ أراه منذ أقدم العصور يَمشي بين الأمم، يردِّدُ وينادي على مسامعها بأعلى الصَّوت: إنَّ الجيشَ الَّذي يقتلُ يومًا طفلاً واحدًا، للوقت يقتلُه الطِّفلُ ببراءته أمام أعيُن الدُّنيا ساعةَ قَتَلَهُ، ويُشيرُ بإصبعه تحت الرّكام إلى أنَّ العالمَ الَّذي يُريقُ دمَ الأطفال، مَذبوحٌ هو بسيف الحقد الَّذي وضعَه على رقابهم بغَير رحمةٍ بالأبرياء والمساكين في الأرض. وإنَّه لَحَقٌّ على العالم كلِّه أن يخجلَ يومَ يجوعُ طفلٌ واحد.! لكنَّه، يومَ يقتلُه، حقٌّ على المدنيَّة كلِّها في أرجاء الأرض أن ترفعَ يدَيها عاليًا، وتنفضَ ثيابَها، وتتبرَّأَ من هذا العالم الَّذي يدَّعيها زورًا، ويخفي وراء قناعها وجهَ الوحش المتأبِّد في أدغال الغاب!

بَلى، إنَّ للإنسان قداسةً على الأرض بعد قداسة الله في السَّماء؛ وإنِّي لأعجَبُ من الَّذين يحسبون البشر كالهوام يُحِلُّون لأنفسهم أن ينزعوا فرحَهم من قلوبهم، ويُنَغِّصوا عليهم عيشَهم، ويُكَدِّروا لهم حياتَهم ظلمًا. وإنِّي لأعجَبُ كذلك، أنَّ أمثال أولئك النَّاس كثيرون في الأرض لو علِمتم..! إنَّ الَّذين يجهلون قيمةَ الإنسان، ويسلبونه حقَّه في الحياة من العدل والأمن، ذئابٌ كالحَةُ الأنياب تجهلُ حقَّ الحَمَل الوَديع في الحياة، وفيلَةٌ لا تعلمُ قوائمُها هَولَ ما تسحقُه تحتها من أزاهيرَ نديَّةٍ في الغابة الخضراء. أولئك غلاظٌ قلوبُهم، لا يهمُّهم لقسوتها أنَّ مَن يقتلُ طفلاً في ميعة طفولته، وشابًّا في غضارة شبابه، يقتلُ معه، بضربةٍ واحدة، عمرًا

مديدًا من الأعوام، وينزعُ من يدَيه حقلاً من الحياة، فسيحًا، مغروسًا بالأماني والأحلام، وتتوسَّدُه الكرومُ والبساتينُ والحدائق.! والويلُ من البشر، لِمَنِ اتَّخذَ من الحياة طريقًا يستجمُّ فيها فوق قبور النَّاس، ويرفعُ قصورَه على جماجمهم، ويقيمُ سريرَه من عظامهم في هذا العالم!

إنَّ القوَّةَ تستطيعُ أن تضربَ الهرمَ بكفِّها على رأسه وتُرديه أرضًا، يكبو على وجهه، وتتدلقُ الدِّماء من فمه، وقد تناثرت أشلاؤه في كلِّ ناحية؛ لكنَّها لا تستطيعُ أن تبنيَ كوخًا واحدًا تجمعُ فيه النَّاسَ على محبَّتها رهبةً واغتصابًا.! إنَّ القوَّةَ تستطيعُ أن ترغمَ أمَّةً بأسرها على القيام والجلوس لها خوفًا من البطش متى تشاء، لكنَّها لا تستطيعُ أن ترغمَ قلبًا واحدًا من قلوبها أن يخفقَ بمحبَّتها من شدَّة الظُّلم والألم!

لقد عوَّدَتنا الحربُ في هذا العالم أن تخضعَ للسَّلام دائمًا، لا أن يخضعَ السَّلامُ للحرب مرَّةً واحدة. وكَم سمعتُ من وراء نافذة الزَّمن صوتَ هاتفٍ يقولُ للَّذين ودّوا أن يقبضوا على السَّلام، ويقودوه غصبًا بالضَّرب إلى منازلهم: دعُوه، إنَّ للسَّلام قلبًا لا يستطيعُ أن يحيا على الجماجم؛ كذلك لا يستطيعُ أن يفتحَ عينَيه كلَّ صباحٍ على أمٍّ تنتحب، وطفلٍ باكٍ، وأبٍ يسألُ عن أبنائه تحت الأنقاض. إنَّه لا يأتي إلى قومٍ إلاَّ بعد أن يرى المحبَّةَ تلوِّحُ له بيدَيها من بعيد، بعد أن أطلقوا حقوقَ النَّاس من أسرها، وأعطوها أصحابَها في وَضح النَّهار!

إيهِ لبنانُ، إنَّ الطَّائراتِ الَّتي تكسرُ ظهرَكَ، والمدافعَ الَّتي تحطِّمُ ساقَيكَ وساعدَيكَ، لا يُمكنُها يومًا أن تُسكِتَ الأطيارَ الَّتي تتدلَّى على أشجارك الوارفة..! وإنَّ الموتَ الَّذي يتنقَّلُ من مَوضِعٍ إلى مَوضِعٍ يفترسُ أبناءَكَ، ويختطفُ أطفالَكَ من حضنكَ، لا يستطيعُ أن يمنعَ الزَّهرَ الفـوَّاحَ والغصنَ الوريــق أن يخرجَ غدًا من تحت رجلَيه في روابيــك

الخضراء..! كما أنَّ الصُّراخ الَّذي تحملُه ألسنةُ رياحك اليومَ إلى الدُّنيا، لا يمكنُه أن يصدَّ يومًا نغمةَ سَواقيكَ وبهجةَ رُباكَ عن العالم..!

كفِّي أيَّتها الحرب، هيَّا ارمِي القنابلَ من يديك، قِفِي واخلَعي نعلَيك، ولا تمشي خطوةً واحدةً فوق المُهَج والأرواح المقدَّسة. إنَّ زهورَ الأرض الَّتي تدوسينها، أطفالٌ رُضَّعٌ، وسنابلَها شبابٌ يُنَّعٌ؛ وإنَّ النَّارَ الَّتي تخبِّئينها في ثيابكِ، والسُّمَّ الَّذي تعتصرينه في أنيابكِ، والخرابَ الَّذي يمشي وراءكِ، والدُّموعَ الَّتي تسيرُ خلفكِ، تجعلُ الأرضَ جمرةً كبيرةً تتلظَّى تحت أماني النَّاس، وتقذفُ بحارُها الموتَ السَّاخنَ إليهم من وراء الشَّواطئ!

كُلوا من ترابي، ولا ترحلوا

"أنا الأرضُ المباركة، أنا الثّرى المقدَّسُ الَّذي يُباحُ لكم أن تطأُوه بأقدامكم ولا إثمَ عليكم في ما تفعلون. هذا خطابي لكم قلتُه من قَبلُ للَّذين سبقوكم من أجدادكم. ما يزال نشيدُ الفلاَّح من أجدادكم الذي مشي وراء المحراث، يتردَّدُ في سمعي، ويَجولُ في خاطري نغمًا شجيًّا تتلوَّى على أمواجه السَّنابلُ في حقولي الواسعة..! أرسمُ بربيعي فوق المروج أجملَ اللَّوحات الَّتي يعجزُ عن رسمها أمهرُ الرَّسَّامين في هذا العالم. أنمِّقُها بالورد الأحمر، وأفوِّفُها بالزَّهر النَّدِيّ، وأزخرفُها بالفراشات المنمنمة من كلِّ لون، وأموِّهُها بالنَّمارق الخضراء..! جداولي ألحاني، وسَواقيَّ أناشيدي، وأطياري أوتاري الَّتي أعزفُ عليها أنغامي عند الصَّباح البَهيّ!

إنَّ الفلاَّحَ من آبائكم وأجدادكم الَّذي جلسَ على حجرٍ من أحجاري في الرَّبيع الطَّلق، وقد نزلتِ الشَّمسُ إليه لتنشِّفَ عرقَه فوق جبينه، لم يبلغْ مجدَه ملكٌ من ملوك الأرض قد جلسَ على عرشه في ذلك القصر المنيف..! واعلموا أنَّ وقفةً في مهبِّ أنسامي هي وقفةٌ في مهبِّ أنسام الجنَّة في السَّماء!

ليس في الأرض كلِّها شاعرٌ كزهرةٍ تُقيمُ فوق تلالي، وتحيا في حدائقي، وتغفو فوق سفوحي..! إنَّ عطرَها أبلغُ القصائد الَّتي ابتكرَها خيال، وخطَّها قلمٌ في هذا العالم.! إنَّ قلمَ الزَّهرة، هنا، لا ككلِّ قلم، وخيالُها لا ككلِّ خيال؛ وليس لأحدٍ في المَعمورة أن يبدعَ إبداعَها.! إنَّها تحتفي عند الفجر بكلِّ فراشة، وتضمُّ بذراعَيها كلَّ نسمةٍ ضيَّعَت أخواتها بين الأودية، لتبعثَ معها الطِّيبَ إلى كلِّ ناحيةٍ في الأرض، كي تهنأَ الدُّنيا بعطرها، وتنعمَ بشذاها، وتمتِّعَ النَّاسَ بالسَّلام والمحبَّة في الكون السَّرمديّ!

ليس بين فلاسفتكم فيلسوفٌ واحدٌ كالنَّهر الَّذي ينسابُ في أعماقي إلى لجَّة البحر الصَّاخب. إنَّه لأعظمُ الفلاسفة في الأرض، وحقٌّ على مدارسكم أن تجلسَ عند قدمَيه، وتصغي إلى حكمته وموعظته دائمًا. ذاك لا يمنعُ أحدًا أن يشربَ من مائه، ولا يطردُ بذرةً واحدةً جاءت تركبُ الرِّيحَ لتنبتَ عند ضفافه، ولا ينتهرُ شجرةً باسقةً تردُّ شعاعَ الشَّمس عنه عندَ طلوع الفجر فوق الهضاب والتِّلال!

وليس بين حكمائكم حكيمٌ واحدٌ كالصَّخرة الَّتي ما تزالُ ترقدُ على سفوحي. إنَّ الطُّيورَ تذرقُ فوق رأسها.. والثَّعلبان يبولُ على صدرها.. والشِّتاءُ يبلِّلُ ملابسَها، والشَّمسُ تحرقُ وجهَها، والرَّعدُ يئزُّ في أذنَيها؛ لكنَّها، مع ذلك، لا تُبالي ولا تَتَبَرَّم، لتبقى في عنادها ساخرةً ممَّا ترى، هازئةً ممَّا تسمع، راسيةً لا تفتُّها عوادي الزَّمن، ولم تتصدَّعْ أمام نوازل الدَّهر!

يا أولادي من كلِّ بارٍّ بينكم؛ إنَّ شقائقَ النُّعمان ما انفكَّت تملأُ حقولي ومروجي، وتخرجُ فوق السُّفوح والتِّلال تختالُ بطيلسانها الأحمر، وتفاخرُ بثيابها المخضَّبة من تلك الدِّماء الَّتي انهمرت مطرًا من جروح المناضلين الأبرار الَّذين سفحوا دماءَهم على ثراي المقدَّس، دفاعًا عنِّي، وذودًا عن شرفي من كلِّ عارٍ ودَنَس!"

يا أخوتي في البلاد المقدَّسة، حيثما كنتم، وأنّى كنتم ووصلتكم هذه الصيحة العاصفة لبلادكم.! ليَكُنْ كلُّ عامٍ من أعوامنا بكلِّ ساعاته وأيَّامه وأسابيعه وأشهره تمجيدًا للأرض، وفاءً منَّا للَّذين هانَت عليهم أرواحُهم من أجل ترابها المقدَّس. وما نفعُ عمرٍ مديدٍ نحتفلُ فيه بالأرض يومًا بعد يومٍ إذا لم يكُنِ احتفالُنا فوقها احتفالا دائمًا، بالمعاول والأظفار نحرثُها، وبالقلوب نغرسُها، وبعطر العرق نضمِّخُها كما تضمِّخُ بأريجها الــرَّوابي والخمائــل. فلنَكُن صخرًا فوق الصَّخر، وأرضًا فوق الأرض

مغروسين عزمًا ووفاءً للرَّاقدين تحتها من آبائنا، مُثَمِّرين كلَّ سلامٍ ومحبَّةٍ لأبنائها. واعلموا أنَّ أيًّا منَّا كفرَ بنعمتها عليه، وباعَ حفنةَ ذهبٍ واحدةٍ من ترابها، لا يعجبَنَّ يومًا أن تناديَه من أعماقها، وتصرخَ حجارتُها في مَسمعه قائلة: الويلُ لك، أنت لا تستحقُّ أمومتي، وملعونٌ الحليبُ الَّذي أرضعتُك من ثديي. إنَّ مَن خانني لا يستأهلُ خيري ومحبَّتي، ولا يستحقّ مثوًى لعظامه في ترابي. اذهب..! لستَ منِّي ولا أنت من أجدادك..! إنَّ أعظمَ النَّاس في الأرض أولئك الَّذين يمجِّدون أجدادَهم وآباءَهم بالمحافظة على التُّراب الَّذي ورثوه عنهم، وديعةً غاليةً يخبِّئونها في قلوبهم، وأمانةً ثمينةً يعلِّقونها في أعناقهم.! كذا، ليس لأمَّةٍ من الأمم في الأرض أن تسكنَ في الهواء، وتحرثَ السُّحُب، وتغرسَ بساتينَها فوق الغيوم، وتقيمَ منازلَها فوق الرِّياح بعد أن ضيَّعَت ترابَ آبائها، واستهانَت بثرى أجدادها، فماتت كالَّذين ماتوا في أعماق التِّيه، وسقطوا في الهاوية من تلك الصَّحراء النَّائية تحت السَّراب!

أيَّتها الرِّيحُ الَّتي تمزَّقَت ثيابُك بين الشَّوك والعوسج، وعلى الرَّغم من الدَّم الجاري من عروقك، أستحلفُكِ في ذهابك وإيابك فوق السُّهول، وفوق الأودية، وفوق الجبال، أن تقفي على أبواب أولئك الأبرار الأشراف من أبناء هذا الوطن الحبيب أينما كانوا فوق ثراه، وتُنادي بأعلى صوتك: "يا أصحابَ المنازل، يا أيُّها الثَّابتون في الأرض والآكلون الجَمر على ثرى الأجداد، أنتم جبالُها ووهادُها، أنتم صخورُها وهضابُها؛ اثبتوا فيها كما ثبتَ آباؤكم من قبلكم، وكُلوا خبزًا من ترابها إن جعتم يومًا، ولا ترحلوا!

قلبي ويا غمدَ الخناجر!

(حديث المرأة)

أنا نرجسةُ العصور، وريحانةُ الدُّنيا أنا؛ أنا درَّةُ الدُّهور وقلادةُ الأمم. أين أَلَقُ الشَّمس من ابتسامتي، وكَم بين رحيق الزَّهر ونفح صباي؛ أين نحيبُ الأمطار من نحيبي وأنا ثكلى، ومَن عنده منكم يا بَني الدُّنيا ذلك الحنوُّ الَّذي تضمُّه جوانحي؟! وهل بينكم مَن حملَتْ ضلوعُه قلبًا كالَّذي تحت أضلعي؟! أنا المعلِّمةُ الأولى في هذا العالم! حضني سبقَ مدارسَ الأرض كلَّها لتربية الأجيال؛ من رحمي خرجَ البَطل، ومن ثديي رضعَ الحكيم، ومن السَّرير الَّذي جعلتُه روضةً فيحاءَ تقطرُ فوقه ابتساماتي ومناغاتي شهدًا وترياقًا، انطلقَ كلُّ فارسٍ وكلُّ قائدٍ وكلُّ سلطانٍ في الأرض! قدَّستني البشريَّةُ زمنًا، وعظَّمَتني البشريَّةُ أيَّامَ كنتُ الإلهةَ أثينا، وعشتاروت، وأفروديت، والملكة بلقيس، وكليوبترا، حتَّى بادَت أُبَّهتي، واحتجبَت بين جماجم العصور!

لقد شرَّفني الله من دون سائر الخَلق بأن جعلَني وعاءً أحملُ للعالم رُسُلَه وأنبياءَه، ومجَّدَني واختارَني إناءً لروحه القدسيَّة في مريمَ العذراء، يومَ تجسَّد وتأنَّس، فحملتُ بيسوعَ النَّاصريَّ كي يحملَ الخلاصَ لهذا العالم!

من أحشائي خرجَ الشُّعراءُ والأدباء، طيورُ الأرض وأوتارُ العصور وعنادلُ الخمائل؛ وما زلتُ وحدي الحمامةَ الورقاءَ الَّتي تحملُ أغصانَ الزَّيتون للبشريَّة الرَّعناء كلَّما غمرَ الطّوفان هذا العالم. لا فرقَ عندي بين نعشٍ ونعش، وبين قبرٍ وقبرٍ حفرَته السُّيوفُ وفتحَته القنابل. كلُّ قبرٍ يبعثُ الشَّجا في نفسي، ومع صرخة كلِّ أمٍّ تحثو على وجهها التُّرابَ في آخر المَسكونة، تستفيقُ معها صرخةٌ من فؤادي!

أيُّها النَّاس، إنَّ قلوبَ الأمَّهات لا تحجزُ بينها الحدودُ الأرضيَّةُ كما تحجز بينكم ، ولا تفصلُها الحواجزُ والأسوارُ مثلما تفصل بين الأمم والشُّعوب المتحاربة. الأمَّهات، أينما كُنَّ في أرجاء الأرض، مختلفاتٍ في أجناسهنَّ ولغاتهنّ، بعيداتٍ في بلادهنَّ عن بعضهنّ، إذا سمعنَ بضحيَّةٍ سقطت في أقاصي الأرض، أسرعنَ إليها بقلوبهنَّ من كلِّ أطراف الدُّنيا، واجتمعنَ معًا، وتلاقين في لحظةٍ واحدةٍ عند غدير الدُّموع، وتكلَّمنَ لغاتٍ عديدةً في لغةٍ واحدة، وحَزِنَّ من قلوبٍ كثيرةٍ في قلب واحد، وصرخنَ في وجه العالم قائلات: أرفقْ بقلبي، أيُّها العالم، وارثِ لضعفي؛ جئنا إليك، معشرَ البَشَر، كَيْلا نكونَ إلاَّ وكلاءَ لله على الأرض، وليَمنَحَ بعضُنا بعضًا سلامًا ورحمةً ومحبَّة. إنَّ الحياةَ أقدسُ ما وهبنا الله على الأرض، فلا يصحُّ أن نلطِّخَها بالدِّماء، ونشوِّهَها بالدُّموع، ونفسدَها بالبغضاء!

يا ملوكَ الأرض، اغربوا عن وجهي، وكسِّروا أقلامكم يا حكماءَ الدُّنيا..! إنَّ أمَّةً تَئِدُ نساءَها حين تجعلُ أجسادهنَّ لأرواحهنَّ قبورًا تمشي بموتاها على الطُّرقات، هي أمَّةٌ أبناؤها موتى يدفنون الأحياء، ومرضى يُداوون الأصحَّاء فيها..! إنَّ الأممَ العرجاءَ لا تقوى على صعود القمم، لأنَّها جعلَت أوطانَها منفًى لنسائها، ونساءَها جواريَ عند رجالها في عصرٍ ولَّى عهدُ الرِّقِّ وانقضى منذ عهدٍ بعيدٍ عن هذا العالم!

أيُّها النَّاس، إنَّ فتيات الأمَّة أفراسُها، وأين كالفرس بين الجياد يومَ صهيل الزَّوابع وصَفير العواصف؟! فانزَعوا اللُّجمَ من أفواه أفراسكم حتَّى تسابقَ الأعاصيرَ والصَّواعق! أطلِقوا أسرابَ نسوري حتَّى تحلِّقَ في الأفق الرَّحيب! إنَّ النِّساءَ اللَّواتي لا ينتفعُ أبناءُ الأمَّة من عقولهنّ، أجسادٌ هنَّ ذات رؤوسٍ مقطَّعَةٍ بالسُّيوف، وإن كانَت محمولةً على أعناقهنَّ كرؤوس الدُّمى الخاوية! وإنَّ أمَّـــةً تطلبُ أن ترفعَ عنها استبدادَ ظالمها،

ولا ترفعُ الاستبدادَ عن أبنائها، وبناتها، جزاؤها أن تتقلَّبَ على الجَمر إلى أن ينجابَ – ولن ينجابَ – اللَّيلُ، وينبلجَ – ولن ينبلجَ – الصَّباح!

حقِّي، أيُّها النَّاس، ألاَّ تحكموا على شرفي بثياب جسدي، لا بثياب أخلاقي!

حقِّي أن أكونَ النَّملةَ الَّتي لا تمنعُها أسرتُها أن تعملَ ليلاً ونهارًا مع أخواتها لجَمع حبَّاتِ القمح، وجَرِّ السَّنابل قبل أن تنهضَ العواصفُ، وتستفيقَ الزَّوابعُ، ويبلِّلَ الشِّتاءُ أثوابَ الخمائل والرَّوابي!

حقِّي أن أكونَ معكم، أيُّها الرِّجالُ أينما كنتم، لا أمامكم، ولا وراءكم. والويلُ الويل لكم إذا أنكرتُم حقِّي هذا يومًا؛ وإن فعلتم فتذكّروا قولي لكم: إنّه لسوف تحبلُ شمسُكم، وتلدُ ظلامًا يفقأُ بشعاعه الدَّامس عيونَكم، ولسوف تُخرجُ بحارُكم من أعماقها جمرًا يتلهَّبُ فوق الموج الغاضب، وتكونُ مضاجعُكم إبرًا وعقارب، وفراشُكم أفاعيَ تدخلُ من أفواهكم إلى أعماق بطونكم، لتبقى بطونكم ما حَييتم كهوفًا لكلِّ صلٍّ وأفعوانٍ نضناض..!

قلبي، ويا غمدَ الخناجر! صدري، ويا حقولَ الشَّوك! أرفِقوا بي، إنّي أمدُّ يدي لكم كي تفكُّوا القيدَ عنِّي؛ وإذا فعلتم يومًا فإنّكم سوف ترون مستقبلَكم رياضًا من زهورٍ وآمالٍ يانعةٍ عند الضِّفاف، وسوف تعاينون أنهارَ الذَّهب تجري في صحاريكم، وينابيعَ الشَّهد تجري عبرَ تاريخكم! تذكَّروا ما أقولُه لكم: إنَّكم سوف ترَون الشَّمسَ تنزلُ من سفينتها في السَّماء، وتركعُ أمامكم، وتقولُ لكم: حقًّا إنَّني لم أشاهدْ بين أمم الأرض أمَّةً أعظمَ منكم، وما كان ذلك إلاَّ يومَ رأيتُ رجالَكم ونساءَكم معًا، يمدُّون أيديهم إلى العلاء، ويقطفون النُّجومَ والكواكب!

الثقافة بالمَجَّان

سلسلة كتب أدبيَّة مجَّانيَّة أسَّسَها *ناجي نعمان* عامَ ١٩٩١ وما زالَ يُشرفُ عليها

Ath-Thaqafa bil Majjan

Série littéraire gratuite établie et dirigée depuis 1991 par
Free of charge literary series established and directed since 1991 by
Serie literaria gratuita establecida y dirigida desde 1991 por
Naji Naaman

QALA'IDUL-'AQIQ

قلائِدُ العَقيق

Mars 2011
©ألحقوقُ مَحفوظة ***Tous droits réservés* – All rights reserved – *Todos los derechos reservados***
Maison Naaman pour la Culture & Naji Naaman's Foundation for Gratis Culture *FGC*